مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

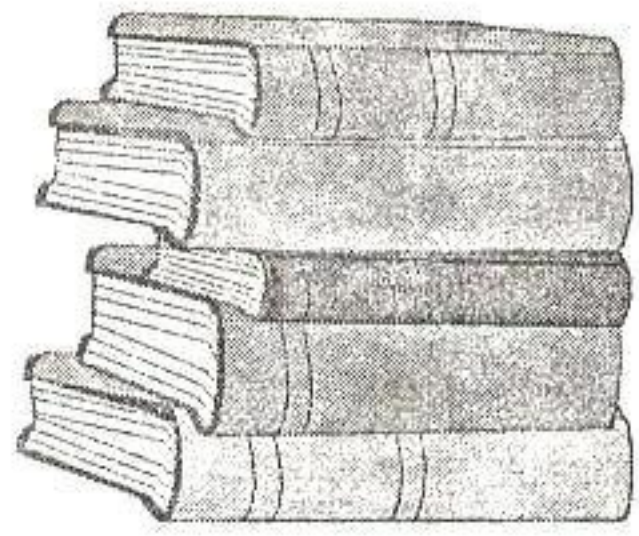

البيان بالإشارة
بين النظرية والتطبيق

الدكتور

سعد أحمد جمعة

مدرس البلاغة فى كلية اللغة العربية
بالمنوفية

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثامن عشر، مطبعة الأخوة الأشقاء ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م

بسم ا لله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى وهب إبراهيم – علـى الكـبر – إسمـاعيل وإسـحاق ، إن ربى لسميع الدعاء . وأصلى وأسلم على المبعوث بالهدى ودين الحـق ليظهـره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أما بعد

فإن الأصل المعتمد فى البيان عن المراد هو اللفـظ ، والبلاغـة العربيـة مـا قامت إلا على الكلام ، وآلة ذلك اللسان ؛ ولذا كان كـل نبـى مبلغـا رسـالة ربه – فى المقام الأول – بلسانه ، ليتم البيان ، ويكتمل الإفهـام ؛ فـلا يكـون عذر لمعتذر .... يقول ا لله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ . إبراهيم ٤ .... [لأن مـدار الأمـر علـى البيـان والتبيـين وعلـى الإفهام والتفهيم ، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد .] (١)

ولما كـان سـيدنا موسـى – صلـى ا لله عليـه وسـلم – ذا عقـدة فـى لسانه ، فصار لا يكاد يبين عن مراد ا لله سـبحانه ، دعـا ربـه قـائلا ﴿ **واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولي** ﴾ طه ٢٧ فكـانت الإجابـة مـن رب العـالمين عاجلة وهى : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ... ﴾ طه ٣٦ .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/٧ – طبعة / دار الكتب العلمية – بيروت .

وإذا كان اللفظ المنطوق قد حاز هذا القدر من الأهمية فى البيان فمما لاشك فيه أن هناك وسائل بيانية أخرى يعمد إليها البلغاء ، ولها من القدر والأهمية ما يقارب قدر اللفظ .

وذلك كالبيان بالإشارة ، والبيان بالخط ، وبالعقد ، وبالحال . والذى يقلب فى البيان العربى كله نثره وشعره ، يلحظ ذلك جيدا ، وعلى رأس هذا البيان حديث النبى – صلى ا لله عليه وسلم – حيث يلحظ حرص الرواة على نقل ألفاظه وإشاراته وأحواله .... الخ .

ترى الراوى مثلا يقول :

قال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – كذا – وأشار بإصبعيه ، أو وأشار إلى الأرض ، أو وأشار إلى جهة ..... الخ .

وهذه النصوص التى حرص الرواة على نقلها ليست من العبث .....

كما أنها ليست من النوافل فى البيان ، بل لها دور فاعل فى الدلالة وبلاغتها قد لا يقل عن دور الكلمة ، لذلك نقلها الرواة كما هى .

ولأجل كل هذا :

يحاول البحث الكشف عن بلاغة الإشارة فى اللغة وبخاصة فى بيان النبى – صلى ا لله عليه وسلم – ..... وهل يمكن الاكتفاء بها فى البيان أو أنها تحتاج إلى وقوف اللفظ بجوارها ؟

وفى أى الأساليب تكثر ؟ وفى أى الأغراض تبرز ؟

وهل من الممكن اصطناع بلاغة للإشارة خاصة بها ؟

هذا – وقد اختط البحث لنفسه منهجا ذا شقين :

الأول : منهج نظرى نقدى يقف على الإشارة عند علماء البلاغة وكيفية تناولهم لها .

والآخر منهج تحليلى موجز يصطفى من حديث – النبى صلى الله عليه وسلم – بعضا منها ليبين فيها قدرة الإشارة على حمل المعانى البلاغية كالتشبيه والحذف والتعريف والطباق وغير ذلك .

ومن خلال المنهجين يحاول البحث الخلوص إلى حقيقة هذه الدلالة – دلالة الإشارة – وأثرها فى البلاغة العربية . ولعلها تكون لبنة فى بنيانها الشامخ .

أما خطة البحث :

فتبدأ بمقدمة تكشف موضوع البحث . ومنهجه ، وخطته ثم تمهيد أعرض فيه لمعنى الإشارة فى اللغة العربية ، ثم فى القرآن الكريم . من خلال عدة آيات .

ثم فصلين ..... فى الفصل الأول الإشارة فى تراث العلماء وفيه مبحثان ، المبحث الأول : دلالة الإشارة عند الجاحظ – وفيها :

١– مصادر الدلالة عند الجاحظ .

٢– توافق اللفظ والإشارة .

٣- موقف الجاحظ من هذه الدلالة .

٤- الإشارة أبعد بلاغا من الصوت .

٥- هل الإشارة عى ؟

أما المبحث الثانى فى الفصل الأول فهو : الإشارة بعد الجاحظ وفيها :

١- الإشارة عند قدامة بن جعفر .

٢- الإشارة عند ابن رشيق وأبى هلال .

٣- الإشارة عند ابن حجة الحموى .

٤- الإشارة عند ابن أبى الأصبع .

٥- ثم وقفة على ما سبق .

الفصل الثانى : بلاغة الإشارة فى بيان النبى - صلى ا لله عليــه وسـلم - فى حديث مسلم وفيها :

١- التوكيد بالإشارة .

٢- التعريف بالإشارة .

٣- دلالة الإشارة على المحذوف .

٤- الاختصاص بالإشارة .

٥- دلالة الإشارة على التشبيه .

٦- إخراج المعنوى فى صورة المحسوس .

٧- الطباق بالإشارة .

ثم خاتمة - أوضح فيها بعضا مما كشف عنه البحث وبعضا من الوصايا .
ثم ثبت بأهم المراجع ثم فهرس للموضوعات .

وا لله الهادى إلى سواء الصراط .

بسم ا لله الرحمن الرحيم

التمهيد

مفهوم الإشارة فى اللغة العربية :

أصل الإشارة من قولهم : شار العسل يشوره شورا وشيارا وشيارة ومشارا ومشارة : استخرجه من الوقبة واجتناه .

قال أبو عبيد : شرت العسل واشترته : اجتنيته ، وأخذته من موضعه [١].

وقالوا : شار الدابة يشورها شورا : إذا عرضها لتباع[٢] والشارة عند العرب والشورة : الهيئة واللباس[٣] ومنه الحديث " أن رجلا أتاه وعليه شاره حسنة "[٤].

واستنادا إلى استعمال العرب يلاحظ أن أصول مادة (شارة) تدل على معانى عرض الشيء وإظهاره والإيماء إليه ، ولهذا قالوا : رجل حسن الشارة

---

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى . تحقيق مهدى المخزومى وإبراهيم السمرانى ط١ ج ٥ منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت - ١٤٠٨ هـ ص ٢٨٠ - باب الشين والراء والواو . وانظر لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف - مصر - شور ، والقاموس المحيط للفيروزبادى ٤٣٤/٢ - شور -دار الفكر - بيروت ١٣٩٨ هـ .

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير - تحقيق طه الزاوى د محمود الطناحى ٥٠٨/٢ مادة شور - المكتبة العلمية - بيروت .

(٣) اللسان - شور .

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٥٠٨/٢ .

حلو الإشارة . وفلان صير شير : حسن الصورة والشارة [١].

ولما كان اللباس والهيئة عرضين يعرف الإنسان بهما . قالوا : الشوار والشارة – اللباس والهيئة . قال زهير : من البسيط :

مقورة تتبارى لا شوار لها إلا القطوع على الأكوار والورك[٢]

وتتطور مادة (شور) التى تحمل فى ثناياها معنى إبداء الشىء وإظهاره وعرضه من دلالة ظاهرية سطحية ، تستند إلى هيئة الشىء . إلى دلالة باطنه عميقة تعتمد على ما فى غور النفس ؛ فتعبر عنها ، وتحكى مضامينها عن طريق الإشارة . جاء فى حديث إسلام عمرو بن العاص : " فدخل أبو هريرة فتشايره الناس " أى : اشتهروه بأبصارهم . كأنه من الشارة وهى الهيئة " اللباس [٣] .

وترتقى الإشارة من البصر إلى الإصبع التى تحكى بإشارتها . وتعبر بحركتها فأسموها : (المشيرة) قالوا : الإصبع السبابة . وأومأ إليه بالمشيرة [٤].

وتكتسب الإشارة آلية الكلام منذ عهود الإنسانية الأولى ، أو ربما كانت مصاحبة له . وبناء عليه يظهر مصطلح الإشارة الذى يدل على الكلام

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى – شور – دار صادر – بيروت ١٣٩٩ هـ ص ٣٤٠ .

(٢) زهير بن أبى سلمى – الديوان – شرح الإمام ثعلب – الدار القومية للطباعة والنشر –مصر ص ١٦٨ – ١٣٨٤ هـ .

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/٥٠٨ لابن الأثير .

(٤) العين للخليل بن أحمد ٦/٢٨١ باب الشين والراء والواو .

. قالت العرب : أشار الرجل يشير إشارة إذا أومأ بيديه[1] والإيماءة تدل على معنى من أمر أو نهى أو سواهما مما يقتضيه المقام . وفى الحديث : " أنه – صلى ا لله عليه وسلم – كان يشير فى الصلاة " أى : يومئ باليد والرأس . يعنى يأمر وينهى بالإشارة [2].

ثم تتطور الإشارة حيث تقترن بالكلام ، ويطلق على الكلام إشارة ولذلك سمت العرب الخطبة (مشوارا) ولقد جاء عنهم " إياك والخطب فإنها مشوار كثير العثار " [3].

وتلتصق كثير من الدلالات بالأصابع فالعرب تقول : " ما فارقتك شبرا ولا فترا ولا عتبا ولا رتبا ولا بصما ، والبصم ما بين الخنصر والبنصر – والعامة تستخدمه الآن فى إقرار الأمى على العقد – أما العتب والرتب فما بين الوسط والسبابة . والفتر ما بين السبابة والإبهام .....

والشبر ما بين الإبهام والخنصر . والفوت بين كل إصبعين طولا [4]. وفى حديث النبى – صلى ا لله عليه وسلم – للرجل الذى كان يشير فى الدعاء : أحد أحد .... أراد أن إشارته كلها مختلفة فما كان منها فى ذكر التوحيد والتشهد فإنه كان يشير بالمسبحة وحدها . وما كان فى غير ذلك كان يشير

---

(١) لسان العرب مادة شور .

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/٥١٨ .

(٣) أساس البلاغة ص ٣٤٠ مادة شور والقاموس ٢/٥٦ – شار .

(٤) لسان العرب – مادة (بصم) .

بكفه كلها ليكون بين الإشارتين فرق . ومنه : إذا تحدث اتصل بها أى : وصل حديثه بإشارته تؤكده [1].

وهذا الالتصاق بين الإشارة والمعانى له أصول قديمة يذكرها ابن جنى فيقول فى حديثه عن أصل اللغة وأن منها ما نشأ من المواضعة :

" فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومئوا إليه ، وقالوا : إنسان إنسان . إنسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق . وإن أرادوا سمة عينه ، أو يده ، أشاروا إلى ذلك . فقالوا : يد ، عين ، رأس ..... " [2].

وهذا يعنى أن للإشارة صلة بالفطرة الإنسانية . ولا يكاد الإنسان يستغنى عنها ، لأنها إن لم تكن وسيلة بيان فهى معينة عليه ، ومنبهة إليه ، ... يقول شمس الحق العظيم أبادى [دأب الوعاظ ، والقصاصون أنهم يحركون أيديهم يمينا وشمالا ينبهون السامعين على الاستماع .....] [3].

وقد لحظ شراح الحديث النبوى هذا الأمر فجعلوا له بابا خاصا فتراهم يقولون مثلا " باب الإشارة فى الخطبة ... وباب الرجل يخطب يشير بيده ... وباب رفع اليدين على المنبر ... الخ .

كل ذلك دليل ساطع على مكانة الإشارة فى البيان العربى .

---

(١) لسان العرب – (شور) .

(٢) الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى ٤٥/١ ط الهيئة العامة للكتاب .

(٣) عون المعبود شرح سنن الإمام أبى داود ٣١٨/٣ – لشمس الحق العظيم أبادى ، ط – دار الكتب العلمية – بيروت .

الإشارة فى بيان القرآن الكريم

لم يرد ذكر للفظ الإشارة فى القرآن الكريم إلا فى موضع واحد ، فى سورة مريم . وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ مريم ٢٩ .

وكان الداعى إلى الإشارة هو التزام الأمر الصادر إليها من قبل ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا فقولي إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ آية ٢٦ وقد ظن أهلها أنها تستهزئ بهم . يقول القرطبى : " التزمت مريم عليها السلام – ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد فى هذه الآية أنها نطقت بـ ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ وإنما ورد أنها أشارت . فيقوى بهذا القول من قال : إن أمرها بـ " قولى " إنما أريد به الإشارة ، ويروى أنها لما أشارت إلى الطفل قالوا : استخفافها بنا أشد علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير : ﴿ **كيف نكلم من كان فى المهد صبيا** ﴾ "[1].

ففهمهم الاستهزاء من إشارتها دليل على أن للإشارة دلالات تفهم منها ، ولذلك يضيف القرطبى رحمه الله ويقول : (الإشارة بمنزلة الكلام ، وتفهم ما يفهم القول ، وكيف لا ، وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال : ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ وفهم منها القوم مقصودها وغرضها ، فقالوا :﴿ **كيف نكلم** ﴾[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦/٤٢٧٣ . ط دار الغد العربى .

(٢) السابق ٦/٤٢٧٦ .

وقد ورد ذكر للإشارة فى سورة آل عمران ، لكنها جاءت فى صورة الرمز وذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ آل عمران ٤١ فقوله ﴿ **إلا رمزا** ﴾ أى : [إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما] (١).

[وأصل الرمز الحركة . يقال : ارتمز إذا تحرك . ومنه قيل للبحر : الراموز ثم اختلفوا فى المراد بالرمز ههنا على أقوال :

الأول : أنه عبارة عن الإشارة كيف كانت ؛ باليد . أو الرأس . أو الحاجب ، أو العين ، أو الشفة .

والثانى : أنه عبارة عن تحريك الشفتين باللفظ من غير نطق وصوت .

قالوا : وحمل الرمز على هذا المعنى أولى : لأن الإشارة بالشفتين يمكن وقوعها بحيث تكون حركات الشفتين وقت الرمز مطابقة لحركاتها عند النطق فيكون الاستدلال بتلك الحركات على المعانى الذهنية أسهل .

الثالث : وهو أنه كان يمكنه أن يتكلم بالكلام ، وأما رفع الصوت بالكلام فكان ممنوعا منه .

فإن قيل : الرمز ليس من جنس الكلام . فكيف استثنى منه ؟

قلنا : لما أدى ما هو المقصود من الكلام سمى كلاما ، ويجوز أيضا أن يكون استثناء منقطعا . فأما إن حملنا الرمز على الكلام الخفى فإن الإشكال زائل] (٢).

---

(١) الكشاف ٣٦١/١ ط / دار التراث العربى .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠٤/٧ لفخر الدين الرازى ط/ دار الفكر العربى – القاهرة .

وقد ذهب القرطبى – رحمه الله – إلى أن الإشارة تنزل منزلة الكلام حيث يقول : [فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود فى كثير من السنة . وآكد الإشارات ما حكم به النبى – صلى الله عليه وسلم – من أمر السوداء حين قال لها " وأين الله " ؟ فأشارت برأسها إلى السماء ، فقال : " اعتقها فإنها مؤمنة " فأجاز الإسلام بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يحرز الدم ، والمال وتستحق به الجنة ، وينجى من النار . وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك فيجب أن تكون الإشارة عاملة فى سائر الديانة . وهو قول عامة الفقهاء] [1].

وتحدث القرآن الكريم عن الإشارة وذكرها بلفظ الوحى وذلك كما جاء قوله تعالى : ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ مريم ١١.

يقول الزمخشرى – رحمه الله – [أوحى : أشار عن مجاهد . ويشهد له " إلا رمزا "] [2][ولا يجوز أن يكون المراد من قوله " أوحى إليهم " الكلام ؛ لأن الكلام كان ممتنعا عليه فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك إما بالإشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لأن كل ذلك يفهم منه المراد .....

واعلم أن الأشبه بالآية هو الإشارة لقوله تعالى فى سورة آل عمران ﴿ **ثلاثة أيام إلا رمزا** ﴾ آل عمران : ٤١ . والرمز لا يكون كناية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٤٣/٢ ط / دار الغد العربى – القاهرة .

(٢) الكشاف للزمخشرى ٧/٣ ، والقرطبى ٤٢٥٧/٦ .

للكلام][1].

وعليه ، فإن الإشارة فى القرآن الكريم قد وردت تحت عدة أسماء :

الأول : لفظها الصريح – كما فى ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ .

الثانى : الرمز كما فى قوله تعالى : ﴿ **آيتك آلا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا** ﴾ .

الثالث : الوحى كما فى قوله تعالى ﴿ **فأوحى إليهم** ﴾ وهذا الأخير هو ما نبه عليه قدامة بن جعفر فى كتابه " نقد النثر " المنسوب إليه . حيث عقد بابا بعنوان " باب من الوحى " وقال فيه : [وأما الوحى فإنه الإبانة عما فى النفس بغير المشافهة على أى معنى وقعت : من إيماء ، ورسالة ، وإشارة ، ومكاتبة ، ولذلك قال ا لله تعالى: ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا** ﴾ الشورى ٥١ .

وهو على وجوه كثيرة . فمنه الإشارة كما قال ا لله عز وجل : ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ مريم ١١ ... ومن الوحى الإشارة باليد ، والغمز بالحاجب ، والإيماض بالعين . كما قال الشاعر :

وتوحى إليك باللحاظ سلامها مخافة واش حاضر ورقيب][2]

---

(١) مفاتيح الغيب ٤١٣/٢ لفخر الدين الرازى – ط / دار الغد العربى – القاهرة .

(٢) نقد النثر لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ص ٥٤ . تحقيق : طه حسين ، وعبد الحميد العبادى طبقة / دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥١ هـ – ١٩٣٣ م .

الفصل الأول

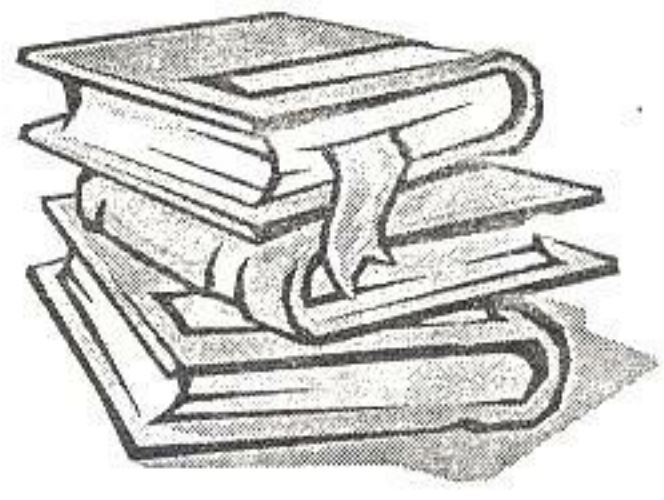

الإشارة فى تراث العلماء

المبحث الأول :

دلالة الإشارة عند الجاحظ - ت ٢٥٥ هـ -

يعد الجاحظ أول من لفت الأنظار إلى هذا النوع من البيان ، وحد حدوده ، وفصل أنواعه ، وقال فيه ما لم يسبق إليه ، والعجيب فى الأمر أن علماء البيان بعد الجاحظ أعرضوا عن أصل هذه الدلالة ، وانحرفوا بها عن طريقها المرسوم ، بل والأعجب منه أن بعضهم عاب على المتكلم أن يستصحب مع اللفظ إشارة باليد أو بغيرها ، وظنوا أن فى ذلك عجزا وعيا عن البيان ، وتقصيرا عن امتلاك اللفظ الحامل للمراد ، مع أنه شئ مركوز فى الفطرة ، ولذلك يقول الجاحظ : [زعمت الأوائل إن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير ؛ لأنه يصور بيده كل صوره ، ويحكى بفمه كل حكاية][1] فتصوير المعانى باليد فطرة فطر الله الناس عليها عند إرادة التعبير عما فى النفس . ولا يمكن أن تكون الفطرة عجزا ، بل هى عون للفظ وموافقة له . بل لابد من صحتها حتى لا يلتبس الأمر عند المتلقى .

توافق اللفظ والإشارة

يرى الجاحظ أن الإشارة منها الصواب ومنها الخطأ ، وأن ذلك مرجعه إلى توافق الإشارة مع اللفظ أو تعارضها معه . فإذا وافقت الإشارة اللفظ صارت صحيحة ، وتم للمراد أركانه . وصار المعنى بليغا . ووصل إلى القلب فى صورة بهية .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٣٩/١ ، ط / دار الكتب العلمية - بيروت .

أما إذا خالفت الإشارة اللفظ فإن المعنى يكتنفه الغموض ويلتبس على المتلقى المراد . ويأتيه المتكلم من حيث لا يدرى . ويوقعه فى اضطراب ويظل المعنى مطمورا . لأن صاحبه لم يحسن إخراجه ، والإعراب عنه لما بين اللفظ والإشارة من تنافر ، وذاك عيب أى عيب ؟ !

والجاحظ يقول : [إن المعانى مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل . وتجعل الخفى منها ظاهرا ، والغائب شاهدا ، والبعيد قريبا ، .... وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة – الحظ هذا – وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى ...] [1].

ولقد نقل الجاحظ – رحمه الله – عن (اسحق بن حسان بن قومه أنه قال : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط . سئل : ما البلاغة ؟ قال : اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة . ومنها ما يكون فى الحديث) [2].

وهذا نص صريح فى أن البلاغة تكون فى الإشارة كما هى فى الحديث .

وهذا البحث لا ينكر أن الأصل فى البيان هو اللفظ . ولكنه ينبه على

---

(١) السابق ١/٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/٦٤ .

الوسائل الأخرى ومن أعلاها الإشارة ، فهـى وإن لم تكـن تسـتقل – غالبـا – بالدلالة فهى عون للفظ فى البيان . وإذا توارى اللفظ لسبب أو لآخر بـرزت هى لتنوب عنه ، لأنها رديفته . والتالية له فى تصوير المراد ، يقول الجاحظ :

(والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هـى لـه ، ونعـم الترجمـان هـى عنه . وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغنى عن الخط ..... ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب ألبته) [1].

أعضاء الإشارة :

يقول الجاحظ : (فأما الإشارة فباليد ، وبالرأس ، وبالعين ، وبالحـاجب ، والمنكـب : إذا تبـاعد الشـخصان ، وبـالثوب وبالسـيف . وقـد يتهـدد دافـع السوط والسيف . فيكون ذلك زاجرا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا) [2].

لكن التراث حمل لنا أمثلة كثيرة كانت العناية فيها بإشـارة العـين . ولعـل السر فى ذلك أن العين أسرع الأعضاء حركة ، والأكثر دلالة ، حتى نقل ابن حزم – رحمه الله – فى كتاب [طوق الحمامة] مـا تعـارف عليـه النـاس فـى بيئته من إشارات العـين . وعقـد لذلـك بابـا فـى كتابـه اسمـه : بـاب الإشـارة بالعين . قال فيه : ثم يتلو التعريـض بـالقبول – إذا وقـع القبـول والموافقـة – الإشارة بلحظ العين ، وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقـام المحمـود . ويبلـغ المبلـغ العجيب ، ويقطع به ويتواصـل ، ويوعـد ويهـدد ، ويقبـض ويبسـط ، ويؤمـر

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٤ .

(٢) السابق ١/٤٣ .

وينهى ، وتضـرب بـه الوعـود ، وينبـه علـى الرقيـب ، ويضحـك ، ويحـزن ، ويسأل ، ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعـانى ضـرب مـن هيئـة اللحـظ ، لا يوقـف علـى تحديده إلا بالرؤية ... وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى .

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الأمر .

وتفتيرها إعلام بالقبول .

وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف .

وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد .

وقلب الحدقة إلى جهة ما ، ثـم صرفهـا بسـرعة تنبيـه علـى مشـار إليـه .

والإشارة الخلفية بمؤخر العين بين كلتاهما سؤال .

وقلب الحدقة من وسط العين إلى المؤق بسرعة شاهد المنع .

وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام .

وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

(ثم يقول) والحواس الأربع أبواب إلى القلب .... والعين أبلغها] [1].

---

(١) طوق الحمامة فى الألفـة والآلاف ص ١٠٥ ت / فـاروق سـعد – منشـورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان .

ونيابة العين عن اللفظ أمر ثابت لا شك فيه ، ولعل السبب فى توارى اللفظ وبروز الإشارة هو الخوف من النطق ، أو عجز المبين عن الكلام ، أو غير ذلك . انظر مثلا إلى قول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال آخر :

ترى عينها عينى فتعرف وحيها وتعرف عينى ما به الوحى يرجع

وقال آخر :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها من المحبة أو بغضا إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامته حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

إن كل هذه الشواهد دامغة على أن هناك للحواس لغة معروفة بين الناس ، ولذلك قيل " لغة العيون – ولغة الأيدى ، ولغة الحواجب ولغة الشفاه .... الخ " وهذه اللغات تعارف عليها الناس وإن لم يكن لها قواعد ، أو مفردات ، ولكن يبقى الأهم وهو أنها لغة مفهومة .

الإشارة أبعد بلاغا من الصوت

لا شك أن مدى الصوت مهما كان قوة صاحبة مدى محدود ولو أن رجلا وقف ليحدث آخر عن بعد لما فهم منه شيئا ، وهنا يبرز دور الإشارة لأنها تصل حيث لا يصل الصوت ، وتحمل المراد حيث يعجز اللفظ عن

حمله ، ولقد جاء فى الأمثال العربية " رفع عقيرته "[1] وهـو مثل يضـرب لمـن صـاح صياحـا شـديدا حتـى أسمـع القـاصى والدانـى ، وهـذا المثـل لا صـوت فيه ، لكن فيه حركة . ومورد هذا المثل : أن رجلا قطعت رجله فبلـغ بـه الألم مبلغه فرفعها على يديه غالبا وأخذ يصيح حتى أسمع الجميع .

والعرب حين أرادت أن تعبر عن هذا الأمر تركت الصوت الذى صاح به الرجل ؛ لأنه مهما كان لن يصل إلى شدة الألم الذى أصابه . ولكنهم التقطوا هذه الحركة التى فعلها الرجل وهى رفع القدم المقطوع وجعلوها مضربا للمثل فى شدة رفع الصوت .

وحكمة العرب جعلتها تفطن إلى أن رفع العقـيرة أبلـغ فـى تصويـر شـدة الصوت من رفع الصوت . فكان التعبير هنا بالإشارة بدلا مـن اللفـظ ، ولـذا يقول الجاحظ :

" ومبلغ الإشارة أبعد مـن مبلـغ الصـوت ، فهـذا أيضـا بـاب تتقـدم فيـه الإشارة الصوت ، والصوت هو آلة اللفظ ، وهو الجوهر الذى يقوم به ، وبـه يوجد التأليف ، ولن تكـون حركـات اللسـان لفظـا ولا كلامـا موزونـا ، ولا منشـورا إلا بظهـور الصـوت ولا تكـون الحـروف كلامـا إلا بـالتقطيع والتأليف "[2].

لكن مع هذا يقرر الجاحظ – رحمه الله – أن الإشارة من تمام اللفظ مـع

---

(١) لسان العرب – عقر – طبعة دار الشعب .البيان والتبيين ٤٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ٤٨/١ .

أن فيها المقاطع ، والمقومات التى تجعلها تستقل – غالبا – بنفسها لكن الأصل الذى اعتمده العرب . وأقره القرآن الكريم فى وحيه هو اللفظ . وما سواه تابع ، وإن استقل مرة فليس على الأصل .

يقول الجاحظ : [وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذى يكون مع الإشارة من الدل والشكل ، والتفتل ، والتثنى ، واستدعاء الشهوة . وغير ذلك من الأمور] (١).

ولعل ذلك كان سببا فى عدم وصف الإشارة بالبلاغة عند أغلب العلماء ، لأنها لا تستقل غالبا بالبيان لمن يستطيع الكلام وإن حدث فمن الندرة الشديدة . أو أن يكون فى لغة غير لغة العرب [كما قيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة] (٢).

هل الإشارة عند الكلام عى ؟

يرى بعضهم أن الإشارة مع الكلام دليل العى ، والعجز عن امتلاك اللفظ المعبر ، وأن البليغ هو الذى يمتلك ناصبة البيان فإذا حرك يده أو التفت بوجهه ، أو غمز بعينه ، أو نحو ذلك فإنما عجز عن اللفظ فاستدعى غيره ليفصح به عن مكنون صدره وكان بعضهم يفاخر بأنه عند بيانه لا يحرك من جسده ساكنا . ولا يشغل سامعه بغير لفظه ، ولذلك عدوا الإشارة عيبا وخروجا عن دائرة البيان العالى .

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٣-٤٥ .

(٢) السابق ١/٤٩ .

أما البلاغة التامة عندهم فهى أن تحمل اللفظ كل ما تريد ، وأنت ساكن الجوارح ... [قال أبو الأشعث : لقيت صحيفة هندية فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخيرا اللفظ ... وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ، ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة ، وكان يقضى على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك ، وبالعجز عن بلوغ إرادته ، وكان يقول : ليس من المنطق أن نستعين عليه بغيره ... حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر ، فاضطره بالحجة ، وبالزيادة فى المسألة حتى حرك يديه ، وحل حبوته . وحبا إليه حتى أخذ بيديه][1] .

وهكذا دلل الجاحظ على خطأ من ظن أن الإشارة عى ، وأنها عجز عن الكلام ، كما بين بعد ذلك أن من أكابر البلغاء من كان يشير عند بيانه [قال ثمامة بن الأشرس كان جعفر بن يحيى أنطق الناس . قد جمع الهدوء والتمهل . والجذالة والحلاوة ، وإفهاما يغنيه عن الإعادة . ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ، كما استغنى عن الإعادة] [2].

ويقول الجاحظ أيضا عن ثمامة بن الأشرس :

[وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن

---

(١) البيان والتبيين ١/٥٢ .

(٢) السابق ١/٥٨ .

الإفهام مع قلة الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة عن التكلف ما كان بلغه ، وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه . ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك] [1].

ولعل كل هذا تبيان على أن الإشارة ليست عيا ، ولا نقصا فى المبين بل هى من أدواته التى لا يستغنى عنها ، وإذا كان هؤلاء الذين استشهد بهم الجاحظ قد أشاروا عند بيانهم ، فحسبنا أن رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – كثيرا ما أشار عند بيانه ، وسيأتى تفصيل ذلك عند التطبيق .

ومع أن الجاحظ – رحمه ا لله – قد فصل هذا التفصيل . وأعطى الإشارة حقها فى عالم البيان ، وجعلها إحدى وسائله ، بل هى النائبة عن اللفظ ، والكاشفة عن مقداره ، والمؤكدة له ، والمعربة عن المعانى الخاصة ، أو خاصة الخاصة ، أقول : على الرغم من هذا إلا أن أغلب من جاء بعده من العلماء وضعوا عنها هذا القدر ، وجردوها من هذه المكانة ، وأعادوها إلى اللفظ لتدور فى فلكه ، وصار مستقى دلالة الإشارة مأخوذا من اللفظ ، فتاهت الدلالة وانمحت معالمها ، ولم نعد نفرق بينها وبين غيرها من الدلالات .

وأول من يلقانا على هذا الضرب صاحب أول أثر نقدى علمى مشهور .

---

(١) السابق ١/٦١ .

المبحث الثانى : الإشارة بعد الجاحظ

الإشارة عند قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ)

لقد تحدث قدامة عن ائتلاف اللفظ والمعنى . وجعل من هذه الأنواع الإشارة ، ثم عرفها فقال :

[الإشارة : أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها ، أو لمحة تدل عليها . كما قال بعضهم ، وقد وصف البلاغة فقال : هى لمحة دالة][1] .

وهذا التعريف يحوى ما يلى :

أولا : أن مصدر الدلالة اللفظ وليس الإشارة – كما يرى –

ثانيا : أن دلالة هذا اللفظ القليل على المعنى دلالة اشتمال أعنى أنها دلالة مفهومة ، وليست منطوقة .

ثالثا : أن الإشارة تقوم بمساعدة اللفظ فى تكوين الدلالة .

لكنه عند استشهاده عمد إلى اللفظ ليأخذ منه دلالة الإشارة وابتعد عن الحركة والإيحاء . يقول مستشهدا على الإشارة .

[ومثل ذلك قول إمرئ القيس :

فإن تهلك شنوءة أو تبدل فسيرى إن فى غسان خالا

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٥٥ .

لعزهم عـززت وإن يذلـوا فذلهم أنـالـك مـا أنـا لا]

ثم قال : [فينبه هذا الشعر على أن ألفاظه مع قصرهـا قـد أشـير بهـا إلى معـان طـوال فمـن ذلـك " تهلـك أو تبـدل " ومنـه قولـه " إن فـى غسـان خالا "، ومنه ما تحته معان كثيرة وشرح وهو قوله " أنا لك ما أناك "] (١).

وهو بهذا التعليق يبعد عن دور الإشارة الحقيقية فى تكوين المعنى . بل إن الشعر الذى استشهد به لا إشارة فيه ولا ما يدل عليها من قريب أو بعيد .

وظل قدامة – رحمه الله – يتابع بشواهده وجميعها تدور فى فلـك الإيجاز أو الكناية ، أو التمثيل .

ولعل الذى دفع بـه إلى هـذا العـدول أنـه معنـى " ببيـان ضـروب المعـانى الشعرية . من حيث مساواتها مع اللفظ أو زيادتها عليه .

فلقد جعل الإشـارة نوعـا مـن أنـواع ائتـلاف اللفـظ مـع المعنـى ، وهـذا الائتلاف قد يكون اللفظ فيه مساويا للمعنى أو زائدا عليه ، كمـا هـو الحـال فى باب الإشارة ، وهذا يعنى أنها عنده قسيم للمساواة .

ومع أنه عند التعريف جعـل مصـدر ومسـتقى هـذه الزيـادة مـن الإشـارة والإيماء واللمحـة الدالـة ، إلا أنـه عنـد الشـرح والتفصيـل أعـرض عـن هـذه اللمحة ، وذاك الإيماء ، وحصر شواهده فى اللفـظ ، ممـا أحـدث بعـده لبسـا ففهمت الإشارة مرة على أنها نتاج الحركة ومرة أخـرى ، نتـاج اللفـظ ومنـه تكون .

---

(١) السابق ص ١٥٥ .

دلالة الإشارة عند ابن رشيق : ت : ٤٥٦ هـ

عقد ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة بابا كبيرا للإشارة بدأ بإبراز جمال هذه الدلالة فقال : [والإشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة ، تدل على بعد المرمى . وفرط المقدرة ، وليس يأتى بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهى فى كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجملا ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه فمن ذلك قول زهير :

فإنى لو لقيتك واتجهنا لكان لكل منكرة كفاء

فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه ، وهذا عند قدامة أفضل بيت فى الإشارة] [١].

ولا يخفى عليك ما فى هذا الكلام من إغراب وبعد عن دلالة الإشارة الحقيقية حتى بيت الشعر الذى أتى به ليس فيه إشارة .

وهو بهذا جعل كل ما يفهم من الكلام من دلالة الإشارة . سواء جاء فى صورة كناية أو تشبيه أو استعارة ... الخ ، وهذا عجيب ، لأن كل دلالة لها اصطلاح متفق عليه ، أما أن أجعل هذه الدلالات دلالة إشارة فهذا بعيد ، والأصل أن دلالة الإشارة تستقى من حركة اليد أو العين أو الرأس سواء صاحبت اللفظ أم جاءت وحدها .

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى ص ٣٠٢ ج ١ دار الجيل .

لكن ابن رشيق يقول عن البيت السابق : (فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه) .... ثم حكم على أن هذا البيت هو أفضل بيت فى الإشارة ، مع أن ابن قدامة لم يعلق على البيت بقليل ولا بكثير .

وفى بيت آخر يقول الشاعر فيه :

جعلت يدى وشاحا لـه وبعض الفوارس لا يعتنق

يقول ابن رشيق :

[وهذا النوع من الشعر هو الوحى عندهم ....] (١).

لقد جعل ابن رشيق كل ما يستعذبه من الشعر ، وكل ما لطف ودق معناه جعله من باب الإشارة ، ولأجل هذا فتح الباب لكل ألوان معناه جعله من باب الإشارة ، ولأجل هذا الباب لكل ألوان معناه جعله من باب الإشارة، ولأجل هذا فتح الباب لكل ألوان البيان ، فهذه إشارة على معنى التشبيه ، ويمثل لها بقول الشاعر :

جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

وهذه إشارة على معنى الاستفهام كقوله تعالى : ﴿ **القارعة ما القارعة** ﴾

وإشارة على معنى التعريض كقوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ وإشارة على معنى الكناية ، وإشارة على معنى التمثيل ، وإشارة على معنى الرمز ، وأخرى على معنى اللحن ... وغير ذلك كثير مما يعنى أن دلالة

---

(١) العمدة لابن رشيق ص ٣٠٧ .

الإشارة قد تاهت ، وأصبح كل معنى مفهوم معنى إشاريا ... !!

وبعد هذا يعود ابن رشيق لينتصر للدلالة الحقيقية للإشارة فيعرض رأى بعضهم ممن يزعمون أن الإشارة حشو ويستدلون على ذلك بقول أبى نواس :

قال إبراهيم بالمـــا ل كذا غربا وشرقا

فزعموا أن قوله (كذا) حشو ، وعجز عن اللفظ الدال على الإشارة ، ولكن ابن رشيق ينتصر لأبى نواس ، ولدلالة الإشارة فيقول [ولم يأت بها أبو نواس حشوا ، ولكن شطارة وعبثا بالكلام وإن شئت قلت : بيانا وتثقيفا ، كما قال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – لعبد ا لله بن عمرو بن العاص " وكيف بك إذا بقيت فى حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم ،وأمانتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ؟ وشبك بين أصابع يديه " ولا أحد أفصح من رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – ، ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف][1].

وهذا الكلام يناقض كلامه السابق . فهو هنا يحدد مستقى الدلالة ويبرز أهمية الحركة فى تكوين المعنى ، بل إنه بعد ذلك ذكر من لطائف هذه الدلالة ما لا يكاد اللفظ يقوم به ، ومن ذلك [أن معاوية أقام الخطباء لبيعة ولده يزيد ، فقام رجل من ذى الكلاع فقال :

هذا أمير المؤمنين ... وأشار بيده إلى معاوية .

فإن مات فهذا ... وأشار إلى يزيد .

---

(١) العمدة ص ٣٠٩ .

فمن أبى فهذا ... وأشار إلى السيف .

ثم قال :

معاوية الخليفة لا نمارى فإن يهلك فسائسنا يزيد

فمن غلب الشقاء عليه جهلا تحكم فى مفارقه الحديد][1]

فابن رشيق بهذا الكلام لا يترك مجالا لأحد أن يتهمه بالانتقاص من دلالة الإشارة ، أو تغييبها داخل الدلالات الأخرى لكن أين هذا مما قاله أولا ؟ أليس هذا عجيبا ؟!!

ولو أنك أردت أن تبرز ما فى الإشارة من دلالة لوجدت اللفظ منك يطول ؛ لأن الشاعر أراد أن يبرهن على أحقية سيدنا معاوية وولده يزيد بالخلافة ، وكان لزاما عليه أن يذكر صفات كل واحد منهما التى تؤهله لهذا المنصب ، ولما كان هذا يطول دعاك أن تنظر بإشارته بيده . إلى معاوية ليتحقق لديك بما لا يدع مجالا للشك فى أحقيتهما للخلافة .

ألا ترى أن إشارته بيده جمعت من المعانى ما لا عد له ؟

ثم يتابع ابن رشيق كلامه فى هذه الدلالة وكأنه يريد منك ألا تلتفت إلى كلامه الأول لأن الإشارة عنده لها قدرة عالية على تصوير المعنى ، بل وتستطيع أن تستقل بالدلالة ومن ذلك ما حكاه عن أبى نواس ، يقول :

[وقد جاء أبو نواس بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها وذلك أن الأمين

---

(١) السابق ص ٣١٠ .

بن زبيده قال له مرة : هل تصنع شعرا لا قافية له ؟

قال : نعم . وصنع من فوره ارتجالا :

ولقد قلت للمليحة قولى من بعيد لمـن يحبـك " إشارة قبلة "

فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولى " إشارة لا لا "

فتنفست ساعـة ثم إنـى قلت للبغل عند ذلك " إشارة امش "

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه ، وحسن تأتيه ، وأعطاه الأمين صلة شريفة] (١).

فلا شك أن صنيع أبى نواس فى غاية الإبداع والبيان ، حتى أكـاد أزعـم أن اللفظ لا يقوم مقام الإشـارة هنـا . ومـن أيـن لنـا بلفـظ يعـبر عـن صـوت القبلة ، وكم من أصوات لا بيان لها ؟ !

ومن كل ما سبق عند ابن رشيق يتبين لنا أنه فى بدايـة كلامـه خلـط بـين دلالة الإشارة ، ودلالة الصور البيانية ، حتى التبس الأمر على القارئ ...

ثم فى آخر كلامه حرر الدلالة . واستشهد عليها بشواهد تبرهن على أثر الحركة المشاهدة فى المعنى .

---

(١) العمدة ص ٣١٠ لابن رشيق .

الإشارة عند عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ)

الناظر فى كتابى عبد القاهر لا يلحظ عناية بهذا النوع من البيان : لأنه -رحمه ا لله- كان مشغولا بقضية الإعجاز القرآنى ، وأنها فى نظم الكلام ، وهذا الهم شغله عن التعريج على رسائل البيان الأخرى ، إلا بعض اللفتات القصيرة ...

وذلك مثل تعليقه على ما لحق البيان من الضيم : لأن البعض [لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين . وما يجده للخط والعقد] (١).

وكذا قوله لمن أعرض عن الشعر بسبب وزنه أن ينظر إلى ما فيه من [حسن تمثيل ، واستعارة ، وإلى التلويح والإشارة ، وإلى صنعة تعمد إلى المعنى الخسيس فتشرفه ...](٢) ... وكذا كلامه عن المزية ، وأنها من حيز المعانى حيث يقول : [وينبغى أن تأخذ الآن فى تفصيل أمر المزية وبيان الجهات التى منها تعرض ، وإنه لمرام صعب ، ومطلب عسير ، ولولا أنه على ذلك لما وجدت الناس بين منكر له من أصله . ومتخيل له على غير وجهه ومعتقدا أنه باب لا تقوى عليه العبارة . ولا يملك فيه إلا الإشارة] (٣).

ولقد سار الإمام – رحمه ا لله – على هذا الضرب . يبين دقائق البيان ،

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد الناصر الجرجانى – ص ٦ – ت / أبو فهر محمود شاكر – مكتبة الخانجى – القاهرة .

(٢) السابق ص ٢٤ .

(٣) السابق ص ٦٥ .

ووجوه الإعجاز فى نظم الكلام ، وهذه الغاية جعلته لا يعتنى إلا بها .

وهذا يعنى أن الإمام – مع أنه أقر ، وذكر الإشارة فى كلامه ، لكنه شغل عنها بغايته التى عقد كتابيه – الدلائل والأسرار – عليها .

الإشارة عند ابن أبى الأصبع (ت ٦٥٤ هـ)

عقد ابن أبى الأصبع بابا للإشارة ، ونقل نقلا عن غيره ، ولكنه زاد فى هذه الدلالة زيادات جليلة جعلته يمثل مرحلة من مراحل تطور دلالة الإشارة . فلقد نقل عن [هند بن أبى هالة فى وصف رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – أنه كان يشير بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا حدث اتصل بها فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى " .

فوصفه ببلاغة اليد ، كما وصفه ببلاغة اللسان ، يعنى أنه يشير بيده فى الموضع الذى تكون فيه الإشارة أولى من العبارة ، وهذا حذق بمواضع المخاطبات] [1].

ثم راح ابن أبى الأصبع يشرح هذا فقال : [يشير بكفه كلها . أى : يفهم بها المخاطب كل ما أراده بسهولة ، فإن الإشارة ببعض الكف تصعب وبكل الكف تسهل .

فأعلمنا هذا الوصاف أنه – صلى ا لله عليه وسلم – كان سهل الإشارة كما كان سهل العبارة ...

---

(١) تحرير التحبير لابن أبى الأصبع ص ٢٠٠ . ت دكتور حفنى شرف – ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وإذا تعجب بها قلبها " يعنى أنه أتى بها على وجهها إذا كان المعنى الذى يشير إليه على وجهه ، ليس فيه ما يستغرب فيعجب منه ، فإن الشىء المعجب إنما يكون معجبا لكونه غير معهود . فكأن الأمر فيه قد قلب لمخالفته المعهود ، فلذلك يجعل - صلى ا لله عليه وسلم - قلب يده فى وقت الإشارة ، إشارة إلى أن هذا الأمر قد جاء على خلاف المعهود ، ولذلك تعجب منه وقوله : " وإذا تحدث اتصل بها " يعنى : اتصل حديثه بها فيكون المعنى متصلا ، والمفهوم بالعبارة والإشارة متلاحما آخذة أعناق بعضه بأعناق بعض .

وقوله : " فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى " عنى أنه عند انتهاء إشارته يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، مشيرا إلى أنه ختم إشارته ... ولذلك عطف هذه الجملة بالفاء ، ولم يأت بها معطوفة بالواو كما أتى بما قبلها من الجمل ؛ لكونها آخر إشاراته . والواو لكونها غير مقتضية للترتيب يجوز أن يكون المتأخر بها متقدما ولا كذلك الفاء ، إذ لابد أن يكون المعطوف بها متأخرا لكونها موضوعة للتعقيب .

وأما اقتصاره على باطن الإبهام دون ظاهرها فمعناه أنه جعل آخر الإشارة متصلا بأول العبارة اتصالا متلائما كملاءمة باطن الكف التى ضرب بها باطن الإبهام التى ضرب عليها ، وهذه أيضا من بلاغة الواصف - رضى ا لله عنه] [1].

---

(١) السابق ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

وهذا الكلام كلام نفيس ؛ لأنه يضع أصولا لقواعد هذه الدلالة وهذه الأصول لابد من تعلمها حتى يستطيع كل مبين أن يخرج مراده ويختار له ما يناسبه من ألوان البيان ، لفظا كان أو إشارة ...

ومع أن هذا الكلام صريح فى قدره الإشارة على حمل المعانى ، وتكوين الدلالات ، إلا أن العجيب أن ابن أبى الأصبع حين استشهد أعرض عن كلامه ، وأتى بشواهد بعيده عما قال ... شواهد كل ما فيها أن اللفظ القليل يحمل المعانى الكثير ، وهذا أشبه بالانفصام بين القاعدة والمثال ، وهو ما وقع فيه الكثيرون .

ولعل السبب فى ذلك ، أن علماء البلاغة حين يكتبون فى العلم يأتون فى كلامهم وقواعدهم بالجديد ، وحاول كل منهم أن يضيف إلى كلام السابقين شيئا فإذا جاءوا إلى التمثيل أخذوا من السابقين شواهدهم وسطروها ، ولذلك تجد أغلب الشعر المستشهد به فى دلالة الإشارات واحدا ، إلا ما ندر .

الإشارة عند ابن حجة الحموى (ت ١٠٩٣ هـ)

أضاف ابن حجة لهذه الدلالة إضافة طيبة ، وذلك لأنه حمل كلام قدامة بن جعفر على محمل لطيف . فجعل الإشارة تعنى : حمل اللفظ القليل لمعان كثيرة تشبيها بدلالة اليد ، يقول :

[هذا النوع – أعنى الإشارة – مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى . وشرحه بأن قال : هو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكثير بإيحاء ولمحة تدل عليه ، كما قيل فى صفة البلاغة : هى لمحة دالة .

وتلخيص هذا الشرح : أنه إشارة المتكلم إلى المبانى الكثيرة بلفظ يشبه لقلته واختصاره – بإشارة اليد ، فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة .

ولابد فى الإشارة من اعتبار صحة الدلالة ، وحسن البيان مع الاختصار لأن المشير بيده إن لم يفهم المشار إليه معناه فإشارته معدودة من العبث ، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – سهل الإشارة كما كان سهل العبارة وهذا ضرب من البلاغة يمتدح به] [1].

وفى كلام ابن حجة تنبيهات ينبغى الوقوف عليها ، فهى مرحلة من مراحل تطور هذه الدلالة ، منها :

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموى ٢/٢٥٨ ، شرح عصام شعيتو – دار مكتبة الهلال – بيروت .

أولا : أن دلالة الإشارة مع كونها من اللفظ لكنها سميت كذلك تشبيها بحركة اليد التى تفهم منها معان كثيرة دفعة واحدة ، فكذلك اللفظ إذا فهم منه معان كثيرة دفعة واحدة كان فيه دلالة إشارة .

ثانيا : يشترط ابن حجة صحة هذه الدلالات حتى لا يدعى كل أحد أن فى اللفظ دلالة كذا ، واللفظ لا يحتملها . يقول : [فلابد فى الإشارة من اعتبار الصحة وحسن البيان مع الاختصار] .

ثالثا : أن من الإشارة ما يوصف بالسهولة . ومنها ما يوصف بالتعقيد ... وسهولة الإشارة تعنى : وصول المراد إلى القلب دون وسائط . ثم يقول : [والإشارة قسمان : قسم للسان وقسم لليد] [1].

لكنك إن بحثت عن القسم الذى لليد فلن تجد له شاهدا فجميع شواهده فى دلالة اللفظ القليل على المعنى الكثير . وهذا عدول بالدلالة عن حقيقتها إلى دلالة الإيجاز فى اللفظ .

الإشارة عند الفقهاء

حظيت دلالة الإشارة لدى الفقهاء بعناية فائقة ، وبنوا عليها أحكاما ، حتى وإن وردت وحدها دون مصاحبة للفظ . مما يعنى إمكانية استقلالها بالدلالة ، ومن ذلك ما جاء فى كثير من أبواب الفقه – يقول المهلب :

[قد تكون الإشارة فى كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام ، مثل قوله

---

(١) السابق ٢/٢٥٨ .

– صلى ا لله عليه وسلم – : بعثت أنا والساعة كهاتين[1] نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة .

وفى إجتماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون فى بعض المواضع أقوى من الكلام] [2].

ومن الأفكار التى بنيت على الإشارة عند الفقهاء :

أنهم [كرهوا للرجل التكلم والإمام يخطب ، وإن تكلم غيره فلا ينكر عليه إلا بالإشارة][3] [واشترطوا لحل الذبيحة أربعة شروط :

الشرط الأول : أن يقول : باسم ا لله عند حركة يده بالذبح أو النحر أو العقر ، ولا يقوم شئ مقام التسمية . فلو سبح ا لله لا يجزئ ، ولا تجوز بغير العربية . ولو مع القدرة على العربية ، ويسن أن يكبر مع التسمية فيقول : باسم ا لله وا لله أكبر فإن كان الذابح أخرس أومأ برأسه إلى السماء وأشار إشارة تدل على التسمية بحيث يفهم منها أنه أراد التسمية . وهذا كاف فى حل ذبيحة الأخرس ...

وفى حكم البدء بالسلام .

وإذا قال : السلام عليك وأشار إلى محمد بدون تسميته فرد أحد الحاضرين ، فإن الغرض يسقط لأن الإشارة تحتمل أن تكون لهم جميعا ، وكذا

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق رقم ٢٩ . ومسلم فى كتاب الجمعة رقم ٤٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٢٧٦ .

(٣) الدين الخالص لمحمود خطاب السبكى ٤/١٣٩ .

إذا قال : السلام عليك . بدون إشارة ، فإنه إذا رد واحد سقط عن الباقين لأنه يصح أن يخاطب الجماعة بخطاب الواحد ...

وفى مبحث اليمين قالوا :

وإذا حلف ألا يأكل هذا وأشار إلى قمح بدون أن يذكره ، فإنه يحنث إذا أكل منه على هيئته أو أكل من دقيقة ، أو خبزه ، أو أى شئ يتولد معه ...

وفى كتاب النكاح

وإذا تزوجها على (هذا الفرس أو هذا الفرس) وأشار لها إلى فرسين وكان أحدهما أقل من الآخر حكم بمهر المثل .

وفى باب القذف قالوا :

إن القذف لا يصح إلا بالتصريح .... قال ابن القصار : وهذا باطل وقد نص مالك أن شهادة الأخرس مقبولة ، إذا فهمت إشارته وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة ....] [1].

أما علماء الأصول فإنهم ذكروا من أنواع الدلالات : دلالة الإشارة ، لكنهم لم يخرجوا بها عن التركيب ونظمه ، وجعلوها ثمرة للفظ وإيماءاته فقالوا عنها إنها :

(دلالة النظم على معنى لم يسق لأجله ؛ لعدم قصد المتكلم له فى نفسه لكن السامع يعلمه بالتأمل فى معنى النظم من غير زياده عليه ولا نقصان)[2].

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ١-٤ / دار الكتب العلمية .

(٢) أصول الفقه للرضى ج ١ ص ٢٣٦ - ت أبو الوفا الأفغانى - ط / دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٢ هأ .

[وجوهر هذه الدلالة – عندهم – ماثل فى أمرين : أنها دلالـة نظميـة . وأنها دلالة غير مقصودة للمتكلم بهذا النظم .

ووجه تسمية هذه الدلالة إشارة – عندهم – أن المتكلم قد يفهم بإشارته وحركته فى أثناء كلامه ما لا يدل عليه نفس اللفظ فيسمى إشارة فكذلك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به . ويبنى عليه] [1].

وكل ذلك كما ترى خارج عن اللفظ ومستنبط منه ، ولا شأن له بدلالـة الحركـة . وإن كـان الأصـل فـى الاصطـلاح : الحركـة . لكنهـم عنـد تحديـد الدلالة نظروا إلى اللفظ وأغفلوا الحركة المصاحبة له .

ولذلك يرى بعضهم أنها دلالة التزاميه تستقى من اللفـظ غـير الصريـح ، ويرى بعضهم أنها تفهم من اللفظ ولا يدل اللفظ عليها ومن ذلك مثلا :

قولـه تعـالى : ﴿ **يحسـبهم الجـاهل أغنيـاء مـن التعفـف** ﴾ البقـرة ٢٧٣ [يؤخذ منه بطريق الإشارة – عندهـم : أن الفقـير قـد يملـك بعـض مـا يغنيـه وليس هو الذى لا يملك البتة فإنه لا يحسبه الجاهل به غنيا من أجـل تعففـه إلا إذا كان ظاهر حاله ساترا حقيقته ، وذلك لا يكون مع العدم المحض] [2].

[ويؤخذ منه أيضا – بطريق الإشارة (عندهم) أن على الفقير ألا يظهـر

---

(١) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة لمحمود توفيق سعد ط / الأمانـة ١٤١٣ هـ ص ١٨٢ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣٢٣/٤ . ت /محمـد الصـادق القمحاوى . دار إحيـاء التراث بيروت .

حاله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فقد جاءت الآية فى معرض المدح ويؤخذ منه أن على أهل الفضل أن ينقبوا عن أولئك المتعففين ويعينوهم على استتارهم ببذل ما يحفظ ماء الحياء فى وجوههم] [1].

وكل هذه المعانى مرتشفة من اللفظ وسياقه ، لكن لا يوجد ذكر هنا لحركة أو إشارة ، مما يعنى أن الأصوليين – أيضا بعدوا بالإشارة عن حقيقتها ، وعمدوا إلى اللفظ وإشاراته ، أى دلالاته .

ولم تقف أهمية هذه الدلالة عند الفقهاء والبلاغيين فقط ، بل إن الناس كانوا يتعارفون على إشارات فيما بينهم ومن ذلك ما ذكره شمس الدين العظيم أبادى فى شرحه لسنن أبى داود .

يقول : [جاء عن ابن سيرين أنه قال :

كانوا يستأذنون الإمام – وهو على المنبر – فلما كان زياد ---- وكثر ذلك بينهم ، قال : من وضع يده على أنفه فهو إذنه] [2].

وهذا اصطلاح بين هؤلاء فقط ، مما يعنى أن الجميع كان يأوى إلى الإشارة : إن صرفه صارف عن اللفظ .

---

(١) سبل الاستنباط ص ١٨٤ .

(٢) عون المعبود شرح سنن الإمام أبى داود لشمس الدين العظيم أيادى ٣/٢٢٠ طبعة دار الكتب العلمية بيروت

وقفه على ما سبق

هذا ما سطره علماؤنا عن الإشارة ، ولقد تبين لى بعض الأمور أوجزها فيما يلى :

أولا : اتفق الجميع على أن الأصل فى البيان اللفظ ، وإن كان الإفهام بأى صورة من الصور الأخرى (كالإشارة والعقد ، والخط والحال) بيان أيضا .

ثانيا : أن أول من كشف اللثام عن هذه الدلالة ، وفصل كثيرا من غوامضها الجاحظ . وذلك فى كتابه البيان والتبيين .

ثالثا : أن للإشارة دلائل واضحة وناطقة فى بيان الوحى ، كما أن لها دلائل فى بيان العرب القديم شعرا ونثرا .

رابعا : اختلفوا فى وصف الإشارة بالبلاغة ، فمنهم من وصفها بالبلاغة كابن المقفع وابن حجة الحموى ، وابن أبى الأصبع ، ومنهم من قصر البلاغة على اللفظ .

خامسا : أن دلالة الإشارة مركوزة فى فطرة الإنسان ، وإذا كانت هكذا فلا يجوز وصف البليغ إذا أشار بالقصور أو العيب والعى .

سادسا : إذا صاحبت الإشارة اللفظ فلابد من توافقهما حتى يسهل المراد على المتلقى .

سابعا : أن حقل البلاغة مازال فى حاجة إلى جهود كثيرة للكشف عن وسائل البيان الأخرى غير اللفظ .

ثامنا : للإشارة مقامات لا يقوم اللفظ بها ولا يستطيع وذلك كالبيان للبعيد ، وبيان الخائف ، والبيان عن أمور لا لفظ لها فى العربية ، كما فى كثير من الأصوات .

تاسعا : أن دلالة الإشارات عند الجاحظ مكتملة المعالم ، متوافقة بين القاعدة والشاهد ، إلا أن هذه الدلالة عند من جاءوا بعده مضطربة ، وبخاصة بين الكلام النظرى والشاهد ، وإن كان لكل منهم إضافة لا تنكر .

عاشرا : أن لكل حركة دلالة ينبغى تمييزها من غيرها ، وتحديد دورها فى تكوين المراد .

وودت لو تم اصطناع معجم لدلالة الإشارات ، يستنبط من بيان السابقين وعلى رأس ذلك بيان الوحى ، ثم بيان العرب القديم .

ولقد ألمح إلى مثل ذلك ابن حزم حين قال : [الإشارة بمؤخرة العين الواحدة تعنى النهى ، وتقصيرها إعلام بالقبول . وإدامة نظرها دليل على التوجع .... وقبض اليد يعنى القوة ، .... وغير ذلك كثير فى التراث . من الممكن جمعه ووضعه فى معجم يستعين به كل مبين .

والآن إلى التطبيق على بيان النبى صلى ا لله عليه وسلم .

كما جاء عند الإمام مسلم .

الفصل الثانى

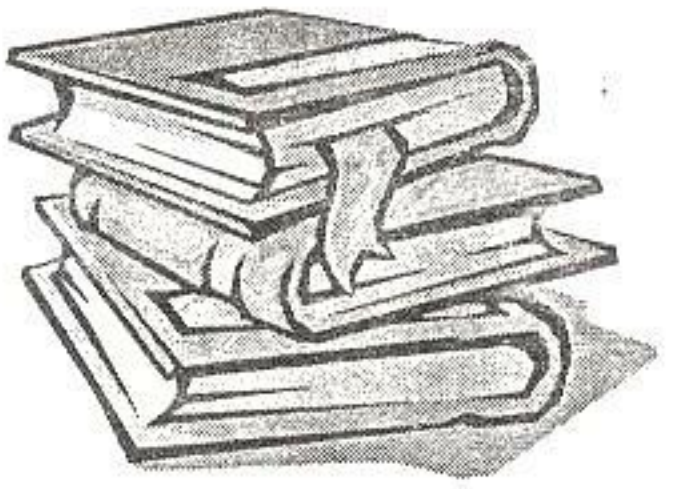

دلالة الإشارة فى بيان النبى ﷺ

دراسة فى صحيح مسلم

تقديم :

لاشك أن كل بيان يحمل صفات صاحبه . فالبيان القرآنى يحمل كل كمال وكل تنزيه وإحاطة . وكل ما يليق با لله تعالى من صفات .

وإذا كان بيان البشر يحمل صفات البشر ، فإن بيان النبى – صلى ا لله عليه وسلم – يقف على رأس هذا البيان ، فهو يحمل خصائصه من عصمة وعلو على كل بيان بشرى .

وإذا كان الحكماء يملكون ناصية البيان فإن النبى يملك من البيان أعلاه ، وأصفاه ، وأحلاه ، وأتقنه ، وأرقاه ، فما أبان أحد كبيان النبى – صلى ا لله عليه وسلم – ، ولم لا وهو قبس من بيان القرآن الكريم ، بل هو الوجه الآخر لهذا البيان .

وللإشارة فى بيان المعصوم – صلى ا لله عليه وسلم – مقام رفيع لا يقل عن مقام اللفظ ولقد حرص الرواة جميعا حين سمعوا رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – يقول : " بلغوا عنى " حرصوا على نقل هذا البيان كاملا غير منقوص ، بما فيه من لفظ وخط ، وإشارة ، وعقد وحال ، لأنهم يعلمون أن هذه الوسائل ليست حشوا ، أو كما مهملا ، بل لها دور فى بناء المعنى ، وتكوين الدلالات ، وعسى أن يكون خلف الإشارة حكم أو تكليف أو وصية ، أو نحو ذلك من تعاليم الدين ، فيغيب عن الناس فيتحملوا وزره ، لأجل ذلك نقلوا إلينا كل شئ ..... تسمعهم يقولون : قال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – كذا وأشار بالسبابة والوسطى ، أو قال كذا

وجمع بين أصابعه ، أو شبك بين أصابعه وتراهم يقولون – خط رسول الله خطوطا فى الأرض .... ثم قال كذا وهذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على منزلة هذه الوسائل البيانية فى حمل المراد إلى المتلقى .

بل إنهم أطلقوا على الإشارة قول ، تسمعهم يقولون . قال بأصبعه كذا .....

والأوراق القادمة تكشف بعضا من علاقة البيان بالإشارة ، وكيف تحمل حركة الجسد تشبيها أو توكيدا ، أو غير ذلك من ألوان البلاغة ، وكأن الإشارة فيها من علم المعانى والبيان والبديع وهذه نماذج تبين كل نوع .

التوكيد بالإشارة

لا شك أن توكيد المسند أو المسند إليه إنما هو تقرير لكل منهما ، وتحقيق لمفهومها . رغبة فى [جعله مستقرا محققا ثابتا بحيث لا يظن به غيره] [1].

والإشاره – بلا شك – تقوم بهذا الدور خير قيام .

ولقد جاءت أحاديث كثيرة ترى فيها الإشارة مؤكدة للفظ ، ومدعمة له وكأن وصول المعنى إلى القلب عن طريق السمع لا يكفى ، فأراد المبين أن يستصحب طريقا إضافيا ، فإذا وجد القلب أن المعنى وصله من طريقين مختلفين ، وكل منها يؤكد الآخر ، فتح للمعنى الباب ليستقر فيه .

ولا شك أن العلماء كانوا يستعينون على المعنى الواحد بعدة طرق لفظية مثل التوكيد اللفظى والمعنوى ، وغير ذلك – لأنهم كانوا يرون فى المعنى فخامة تحتاج إلى هذا الحشد . فما المانع أن تؤازر الإشارة اللفظ فى المعانى الشريفة ، والمقامات العالية التى تحتاج إلى لون آخر من المؤكدات سوى المؤكدات اللفظية ، حتى تستقر النفوس ، ويزول مافيها من ريب .

ومن هذا الباب ما جاء فى فتح خيبر من حديث سلمة بن الأكوع . أنه قال : لما كان يوم خيبر قاتل أخى قتالا شديدا مع رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – فارتد عليه سيفه فقتله ، فقال أصحاب رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – فى ذلك ، وشكوا فيه : رجل مات فى سلاحه ، وشكوا فى بعض أمره .

---

(١) مختصر السعد على تلخيص المفتاح – شروح التلخيص ٣٦٨/١ – طبعة دار السرور – بيروت .

قال سلمة : فقفل رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – من خيبر ، فقلت : يا رسول ا لله ائذن لى أن أرجز لك ، فأذن له رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – فقال عمر بن الخطاب أعلم ما تقول ، قال : فقلت :

وا لله لولا ا لله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – " صدقت "

وأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا

قال : فلما قضيت رجزى قال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – " من قال هذا ؟ قلت : قاله أخى فقال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – " يرحمه ا لله " قال : فقلت : يا رسول ا لله ، إن ناسا ليهابون الصلاة عليه ، يقولون رجل مات بسلاحه ، فقال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – " مات جاهدا مجاهدا " وفى رواية : " حين قلت : إن ناسا يهابون الصلاة عليه ، فقال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – : " كذبوا . مات جاهدا مجاهدا فله أجره مرتين " وأشار بإصبعية " [1].

فقوله : " مرتين " ثم يشير بإصبعية بمثابة التوكيد اللفظى ، والمقام فى حاجة إلى ذلك : لأن سيدنا سلمة بن الأكوع أصابه ما أصابه من غم حين رأى من صحابة النبى – صلى ا لله عليه وسلم – إعراضا عن الصلاة على

---

(١) رواه مسلم / ٤٥٨٨ – وأبو داود / ٢٥٣٨ .

أخيه ، فارتاب هو الآخر ، ودخله ما دخله من شك ، ولكى يزول هذا الشك من عنده ومن عند الصحابة جميعا أكد النبى – صلى ا لله عليه وسلم – فوز أخيه بالشهادة توكيدا لا مريه فيه ، فاحتشد لهذا المعنى اللفظ والإشارة ، فقيل فى اللفظ : " كذبوا مات جاهدا مجاهدا فله أجره مرتين "

ثم كانت الإشارة بالإصبعين مؤكدة لهذا القول –

لتظل جميع الآذان تذكر كلام النبى – صلى ا لله عليه وسلم – وتظل جميع العيون ترى إشارة النبى – صلى ا لله عليه وسلم – .... وعندها لا يكون شك لأن اللفظ والإشارة من رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – وليسا من غيره .

ومن هذا الباب قول النبى – صلى ا لله عليه وسلم – تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل " قال سليم بن عامر : فوا لله ما أدرى ما يعنى بالميل أمسافة الأرض ، أم الميل الذى تكتحل به العين ؟ قال : " فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقوبه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما " .

قال : وأشار رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – بيده إلى فيه " [1].

فقوله – صلى ا لله عليه وسلم – " ومنهم من يلجمه العرق إلجاما – يفهم منه أن العرق وصل إلى الفم – هذا منطوق العبارة – والذهن يتصور

---

(١) رواه مسلم / ٧٠٦٦ – والترمزى /٢٤٢١ .

ذلك – لاشك – إذن ، ما الإضافة التى أضافها رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – بإشارته ؟ وهل قصر اللفظ فى البيان حتى يأتى بالإشارة ؟

إن الإضافة التى أتت بها الإشارة هى استحضار الصورة لتشاهدها العيون فوضع النبى – صلى ا لله عليه وسلم – يده على فيه نقل المعنى من عالم الغيب الذى سيكون إلى عالم الشهادة الكائن ، وهذا من أرفع صور التوكيد .

أما اصطفاء هذه الصنف – صنف من يلجمه العرق – دون غيره – لتصويره فلأنه الأشد كربا ، والمقام مقام ترهيب من يوم القيامة ، والسياق سياق زجر ، فالشمس تدنو من الرؤوس ، والكل فى ضيق ، فكان الأبلغ استخلاص أشد الصور نفورا فكان من يلجمه العرق إلجاما ، لأن من رأى ليس كمن سمع .

التعريف بالإشارة

تحدث البلاغيون عن التعريف باسم الإشارة ، وجعلوا لذلك أغراضا كثيرة منها تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، ومنها المدح ، أو الذم ، أو لبيان حاله فى القرب أو البعد ، أو التوسط ، وقد يكون التعريف باسم الإشارة غرضه التنبيه على ما سبق ذكره فى الكلام .... وغير ذلك .

ولقد بين العلماء أن التعريف بالإشارة يرقى إلى مرتبة عالية فى مجال وسائل التعريف وذلك بسبب مصاحبة الإشارة الحسية للفظ المسموع .

يقول السبكى فى – عروس الأفراح – : [يؤتى بالمسند إليه اسم إشارة لأحد أمور :

الأول : أن يقصد تميزه لإحضاره فى ذهن السامع حسا ....

فالإشارة : أكمل ما يكون من التمييز كقول ابن الرومى :

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه من نسل شيبان بين الضال والعلم

.....] [1].

انظر إلى قوله : " لإحضاره فى ذهن السامع حسا " فهذا يعنى مصاحبة الحركة للفظ .

ويقول الدسوقى فى حاشيته على السعد :

---

(١) شروح التلخيص . عروس الأفراح للسبكى ٣١٣/١ – طبعة – دار السرور – بيروت – لبنان .

[والتمييز الأكمل هو ما كان بالعين والقلب ، فإنه لا تمييز أكمل منه ، ولا يحصل ذلك التمييز إلا باسم الإشارة ....

ودلالة اسم الإشارة على أكمليه التمييز لأن معه إشارة حسية ، ولا يتأتى معها اشتباه ....

واسم الإشارة إذا كان المشار إليه حاضرا محسوسا للسامع بحاسة البصر ، أو نزل تلك المنزلة أقوى ....] [1] يعنى من غيره من المعارف كالعلم واسم الموصول وغير ذلك .

وكل هذا يدل على قدرة الإشارة الحسية على حمل المعانى ، بل إن أسماء الإشارة لا تتخيل إلا إذا صاحبتها حركات حسية يلفت بها المتكلم نظر السامع إلى ما يريد .

ومن هذا الباب ما رواه أبو هريرة – رضى ا لله عنه – قال : " كنا جلوسا عند النبى – صلى ا لله عليه وسلم – فأنزلت عليه سورة الجمعة " وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ...." قال : قلت : من هم يا رسول ا لله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا – وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – على سلمان يده ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال – أو رجل – من هؤلاء " [2].

فقول النبى – صلى ا لله عليه وسلم – لناله رجال من هؤلاء " صاحبه

---

(١) حاشية الدسوقى على شرح السعد . ٣١٣/١ . شروح التلخيص .

(٢) البخارى رقم ٤٨٩٧ . والترمذى /٣٣١٠ . والنسائى ٤٦٠/٩ .

وضع يده على سلمان الفارسى ، .... حتى يكون التميز فى أكمل صورة ، وبخاصة أن السائل صار فى شوق إلى معرفة هذه الطائفة التى تلحق بالسابقين الأولين ....

هذا ووضع اليد على سلمان الفارسى قصد به رجال من أهل فارسى وهذا يفسره رواية أبى هريرة فى صحيح مسلم " لو كان الدين عند الثريا لذهب رجال من أهل فارس حتى يتناولوه " .

وليس المقصود اختصاص أهل فارس بسبب فارسيتهم ، وإنما المقصود ما يتحلون به من طاعة والتزام .

ولقد نقل ابن حجر بعضا مما جاء فى أسباب نيل هؤلاء هذه الدرجة ومنها : ما جاء زيادة فى إحدى الروايات " برقة قلوبهم "

وفى أخرى " يتبعون سنتى ، ويكثرون الصلاة على "] [1].

وعلى هذا فالإشارة الحسية تلفت انتباه الناس إلى صفات هذه الطائفة التى تتحلى بالإيمان ولو كان عند الثريا . ووضع اليد على سلمان يعنى أن سلمان الفارسى – رضى ا لله عنه – كان متحليا بهذه الصفات فجاءت الإشارة الحسية لينظر الجميع إلى سلمان وما يتحلى به . فيكون ذلك دافعا إلى التشبه به .

---

(١) فتح البارى ٨/٥١١ .

دلالة الإشارة على المحذوف

قد تأتى الإشارة لتدل على لفظ محذوف لكنه مراد فى المعنى ، وعدم التصريح بهذا اللفظ له أسباب كثيرة كما فى أغراض الحذف فى اللفظ وذلك مثل [الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أو لضيق المقام .... الخ] (١).

ولا شك أن للحذف مكانة عالية فى البلاغة . ويكفى هنا ما ذكره الإمام عبد القاهر من أن الحذف [باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن] (٢).

وقد يعمد المبين إلى الإيماء وإلى المحذوف بإشارته ، وعندها تكون هذه الإشارة هى الدليل على المحذوف فتكسبه وضوحا وبيانا قد لا يتوفران فى ذكره .

ومن ذلك ما رواه سيدنا عبد الله بن عباس ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " أمرت أن أسجد على سبعة أعظم . الجبهة – وأشار بيده على أنفه – واليدين ، والرجلين ، وأطراف القدمين ، ولا تكفت الثياب

---

(١) شروح التلخيص ١/٢٧٣-٢٧٧ .

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ١٤٦ .

ولا الشعر " [1].

والحديث حذف منه لفظ " الأنف – وإن كان أشير إليه باليد ذلك ، لأن الأصل فى الرأس الجبهة ، فالسجود عليها هو الفرض ويتبع ذلك الأنف .

وكأن التصريح بالجبهة ، وحذف الأنف يعنى أن كلا منهما ليسا على درجة واحدة فى السجود .

[قال القرطبى : هذا يدل على أن الجبهة الأصل فى السجود والأنف تبع .... وقال ابن دقيق العيد : قيل : معناه أنهما جعلا كعضو واحد ، وإلا لكانت الأعضاء ثمانية ، قال : وفيه نظر : لأنه يلزم منه أن يكتفى بالسجود على الأنف ، كما يكتفى بالسجود على بعض الجبهة .... والحق : أن مثل هذا لا يعارض التصريح بذكر الجبهة ، وإن أمكن أن يعتقد أنها كعضو واحد فذاك فى التسمية والعبارة ، لا فى الحكم الذى دل عليه الأمر] [2].

وقد تفيد الإشارة أن الجبهة والأنف ملتصقين فهما عضو واحد كما جاء [عند النسائى من رواية طاوس " ووضع يده على جبهته وأمرها على أنفه . قال : هذا واحد] [3].

وأرى أن حذف لفظ " الأنف " هنا لا يعنى أنها تالية للجبهة وتابعة لها

---

(١) رواه مسلم / ١٠٧٧ والبخارى / ٨٠٩ – وأبو داود / ٨٨٩ . والترمذى / ٢٧٣ .

(٢) فتح البارى ٢/٣٤٨ .

(٣) السابق ٢/٣٤٨ .

فى الأهمية ، بل إن الإشارة إلى الأنف يعنى – كما أرى – أهمية السجود عليها لدرجة قد تفوق غيرها ، ولذلك وضع البخارى (رحمه ا لله) هذا الحديث تحت عنوان " باب السجود على الأنف والطين " .

ذلك لأن السجود على الأنف أقرب إلى الذل والانكسار والخشوع من غيره ، ويعلق ابن حجر – رحمه ا لله – على عنوان البخارى فيقول :

" كأن البخارى يشير إلى تأكد أمر السجود على الأنف . بأنه لم يترك مع وجود عذر الطين الذى أثر فيه ، ولا حجة فيه لمن استدل به على جواز الاكتفاء بالأنف ، لأنه فى سياقه أنه سجد على جبهته وأرنبته ، فوضح أنه إنما قصد بالترجمة ما قدمناه ، وهو دال على وجوب السجود عليهما ، ولولا ذلك لصانهما عن لوث الطين " [1].

وعليه فإن الحذف هنا لا يقل درجة عن الذكر ذلك لأن الإشارة نبهت على المحذوف ، وزادته إيضاحا فوق اللفظ .

ومن هذا الباب أيضا ما رواه عبد ا لله بن عمر – رضى ا لله عنه – قال " اشتكى سعد بن عبادة شكوى له ، فأتى رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – يعوده ، مع عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد ا لله بن مسعود ، فلما دخل عليه وجده فى غشيه . **فقال : أقد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله : فبكى ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بكوا ، فقال : ألا تسمعون ؟ إن الله لا**

---

(١) السابق ٢/٣٤٨ .

يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو رحم [1].

وأول ما يلحظ هنا : البداية بـ " ألا تسمعون " وهذا تمهيد لما سيقوله لأهميته حتى لا يتحرج أحد من البكاء ، أو يظن أن فيه معصية .

ولكن ما الفرق بين (أن الله يعذب بهذا أو يرحم) وبين (إن الله يعذب باللسان أو يرحم) ؟

الفرق أن فى أحد الخبرين إشارة وفى الآخر تصريح باللفظ ، ولا شك أن حذف اللفظ والاكتفاء بالإشارة التى تراها العين توكيد للمعنى ، وبخاصة أن فى الكلام تشريعا يترتب عليه حرام وحلال ، كما أن فى حذف لفظ " اللسان " تهويلا وترهيبا من عواقبه ، لأنه إما يرفع صاحبه إلى عليين ، أو يهوى به إلى أسفل سافلين وهنا يتحقق كلام عبد القاهر (وترى ترك الذكر أفصح من الذكر) ..... الخ .

---

(١) رواه البخارى / ١٣٠٤ ، ومسلم / ٢١٠٢ .

الاختصاص بالإشارة

الاختصاص فى البلاغة له أدواته المعروفة مثل (إلا) و (إنما) و (العطف بلا ، وبل ، ولكن) .... الخ .

وأرى أن يضاف إلى ذلك الاختصاص بالإشارة ، لأنها تصحب اللفظ فتخصص جزءه ، أو نوعه ، أو أفضله ، أو أدناه .

ومن هذا الباب ما رواه ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : أشار النبى – صلى الله عليه وسلم – نحو اليمن ، فقال : **ألا إن الإيمان ههنا ، وأن القسوة وغلظ القلوب فى الفدادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان فى ربيعه ومضر** [1] .

فالحديث يختص أهل اليمن بعلو القدر فى الإيمان ، وسبقهم فى ذلك غيرهم ولقد كان الاختصاص بأداة بيانية واضحة تراها العيون وهى الإشارة باليد يقول ابن حجر : [قوله : أشار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيده نحو اليمن . فقال " الإيمان .... " فيه تعقب على من زعم أن المراد بقوله " يمان " الأنصار لكون أصلهم من أهل اليمن ، لأن فى إشارته إلى جهة اليمن ما يدل على أن المراد به أهلها حينئذ ، لا الذين كان أصلهم منها ، وسبب الثناء على أهل اليمن إسراعهم إلى الإيمان وقبولهم] [2] .

---

(١) رواه البخارى ٣٣/٢ ، ومسلم / ١٧٨ .

(٢) فتح البارى ٤٠٦/٦ . شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ط/ دار الريان للتراث .

وهذا يعنى أن الإشارة أفادت خصوصية فى المراد ، وهو أن الفضل الإيمانى فى أهل اليمن الذين كانوا فى عهد رسول ا لله خاصة ، وليس الأمر متعلقا بمن سبقوا منهم ، أو من جاءوا من بعدهم ، ولذلك جاء فى رواية **" جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة . الإيمان يمان ، والفقه يمان والحكمة يمانية "** (١).

فالإشارة فى الحديث خصصت الوقت ، وليس الأمر على إطلاقه ، فالفضل إذن للأنصار الذين آووا ونصروا – فهم أرق أفئدة ، وأهل فقه وإيمان ولذلك اعترض العلماء على من ظن أن اللفظ على إطلاقه فقالوا : [أما ما ذكر من نسبة الإيمان إلى أهل اليمن ، فقد صرفوه عن ظاهره من حيث إن مبدأ الإيمان من مكة ثم من المدينة](٢) بل [غالى البعض فقال إنه أراد بذلك مكة ، ومكة من تهامة ، وتهامة من أرض اليمن ....

أو أراد مكة والمدينة معا .... فإنه يروى فى الحديث أنه – صلى ا لله عليه وسلم – قال هذا الكلام وهو بتبوك ، ومكة والمدينة حينئذ بينه وبين اليمن ، فأشار إلى ناحية اليمن ، وهو يريد مكة والمدينة ، فقال : الإيمان يمان ونسبهما إلى اليمن لكونهما حينئذ من ناحية اليمن ، كما قالوا : الركن اليمانى ..... وهو بمكة لكونه إلى ناحية اليمن .

لكن الأحسن كما قال أبو عبيده : أن المراد بذلك الأنصار لأنهم يمانون

---

(١) رواه مسلم ١٧٩ .

(٢) شرح النووى لصحيح مسلم ١/٥٧٠ .

فى الأصل ، فنسب الإيمان إليهم لكونهم أنصاره] [1].

ولعل هذا القول هو الذى يفسر الجمع بين الإشارة واللفظ فى رواية البخارى حيث جاء فيها : [الإيمان يمان ها هنا] .

فقوله " يمان " إشارة إلى أهل اليمن .

وقوله " ها هنا " أراد بها الأنصار .

وذلك لأن اسم الإشارة " هنا " يدل على القرب كما قال ابن مالك

وبهنا أو ههنا أشر إلى دانى المكان وبه الكاف صلا

أى " يشار إلى المكان القريب بـ " هنا " ويتقدمها هاء التنبيه فيقال : " ههنا " [2].

وعلى هذا فالحديث مدح للأوس والخزرج ، فهم الأرض التى اشتد فيها عود الإسلام ، واستوى على سوقه ، وبيعتى العقبة دليل ذلك .

أما ما قاله بعضهم من صرف المعنى عن ظاهره ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – أراد مكة فإنه يخالف الروايات الكثيرة والصريحة فى أنهم أهل اليمن ، نحو : أتاكم أهل اليمن ، وجاءكم أهل اليمن ، ثم جاءت الإشارة فى روايات أخرى لتؤكد هذه الأمور ، ولذلك أختار هذا الرأى النووى وحسنه أبو عبيده .

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النواوى ١/ ٥٧٠ ط دار الغد العربى .

(٢) شرح ابن عقيل ص ٤٨ على ألفية ابن مالك ط / إدارة المعاهد الأزهرية .

ومن هذا الباب ما رواه أبو هريرة – رضى ا لله عنه – أن رسوا ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – **ذكر يوم الجمعة ، فقال : فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه** " .

وزاد قتيبة فى روايته : وأشار بيده يقللها وفى رواية أخرى وقال بيده يقللها يزهدها [1].

وهذه الإشارة استنبط منها الصحابة معنى القلة – كما نص على ذلك الراوى مما يعنى أنهم مصطلحون ضمنا على إشارات يفهمون منها معانى خاصة ولذلك [جاء فى رواية سلمة بن علقمة : ..... ووضع أنملته على بطن الوسطى ، أو الخنصر ، قلنا يزهدها .... وبين أبو مسلم الكجى أن الذى وضع هو بشر بن المفضل رواية عن سلمة بن علقمة ، وكأنه فسر الإشارة بذلك ، وأنها ساعة لطيفة تنتقل بين وسط النهار إلى قرب آخره ، وبهذا يحصل الجمع بينه ، وبين قوله " يزهدها " أى : يقللها .

ولمسلم من رواية محمد بن زياد عن أبى هريرة " وهى ساعة خفيفة ، وللطبرانى فى الأوسط فى حديث أنس " وهى قدر هذا " يعنى قبضة " قال الزين بن المنير : الإشارة لتقليلها هو للترغيب فيها ، والحض عليها ليسارة وقتها ، وغزارة فضلها ....

وإذا علم أن فائدة الإبهام لهذه الساعة ، ولليلة القدر ، بعث الداعى على

---

(١) رواه مسلم /١٩٣٦ ، والبخارى /٩٣٥ .

الإكثار من الصلاة والدعاء ، ولو بين لا تكل الناس على ذلك ، وتركوا ما عداها ، فالعجب بعد ذلك ممن يجتهد فى طلب تحديدها] [1].

ولا شك أن الاختصاص بالإشارة هنا لا يراد منه ساعة دون أخرى ، ولكن يراد منه التنبيه على قلة وقت الإجابة كما فسر العلماء حيث قالوا أن هذه الإشارة تعنى : أنها يسيرة أو تعنى : ساعة خفيفة وقيل : إنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة ، وقيل : عند الشروق ، وقيل : قبل الغروب ....

وكل ذلك تفسير للإشارة بالقلة . حتى يجتهد المسلم فى كل وقت عله يدركها .

---

(١) فتح البارى ٢/٤٨١-٤٨٩ .

للتشبيه فى البيان العربى منزلة عالية . قال عنها الإمام : [وهل نشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين ، حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ....] [1].

وظهور الإشارة فى دائرة البيان ، وولوجها فى تصاويره الكثيرة دليل على قدرة الإشارة على حمل المعانى وأدائها على أتم وجه ، ولذا يستعان بالإشارة فى الصورة التشبيهية ، لأن بينهما علاقة وصلة رحم فالغرض الأول من التشبيه هو البيان والإيضاح ، وليس هناك أقوى من الإشارة فى إبراز المعانى فى صور مشاهدة محسوسة تراها العيون ، وتتلمسها الأيادى .

ومن هذا : ما رواه سيدنا عمار بن ياسر قال :

بعثنى رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – فى حاجة فأجنبت ، فلم أجد الماء فتمرغت فى الصعيد كما تمرغ الدابة ، ثم أتيت النبى – صلى ا لله عليه وسلم – ذكرت ذلك له ، فقال : **" إنما كان يكفيك أن تقول بيدك هكذا :** ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال

---

(١) رواه البخارى / ٣٤٥ ، ومسلم /٧٩٦ ، وأبو داود / ٣٢١ .

باليمين وظاهر كفيه ووجهه .... الخ [1].

ولا شك أن صنيع سيدنا عمار إنما كان بعد سماعه قول ا لله تعالى : ﴿ فتيمموا صعيدا طيبا ﴾ النساء ٤٣ – لأنه لن يفعل شيئا دون دليل ، لكن الآية لم تبين كيفية التطهر ، ولا مقداره ....

لذلك بالغ سيدنا عمار فعم الجسد بالتراب .

وكان تعليمه من خلال الصورة الإشارية التشبيهية ، فقام النبى – صلى ا لله عليه وسلم – بتعليمه عمليا ، وهو ينظر ، وهذا كما يقولون : بيان على المعلم ....

ولو افترضنا لفظا يقوم مقام الإشارة ، والحركات فلن يكمل الغرض لأنه ستبقى فى النفس أسئلة ، تحتاج إلى ألفاظ كثيرة ، حتى يكتمل المراد ، ومن هذه الأسئلة : كيف يكون الضرب للأرض ؟ وكم مرة نضرب ؟ وبم نبدأ ؟ وإلى أى مدى يكون المسح ؟ ....

وغير ذلك كثير .

ولقد كانت الإشارة التشبيهية وافية بجميع هذه الأسئلة فما تركت فى النفس شيئا ، كيف وهو يعلمه أن يتشبه بأفعاله ، فالمشبه سيكون تيمم سيدنا عمار ، والمشبه به هو تيمم رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – وتم كل

---

(١) رواه البخارى / ٣٤٥ ، ومسلم / ٧٩٦ ، وأبو داود / ٣٢١ .

ذلك من خلال الإشارة ، التى دلت على المعانى الكثيرة بحركات يسيره ولذلك سكت اللسان ، وأمسك عن البيان ، وقامت اليدان لتقول بحركاتها وتقلباتها ؛ ليرى الجميع ، فيحصل المراد .

ومن باب دلالة الإشارة على التشبيه ما رواه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - **" كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة "** وأشار مالك بالسبابة والوسطى " [1].

وهنا أيضا قامت الإشارة بدور المشبه به ، لأنها - بلا شك - أكمل فى البيان من المشبه ، ولو أردنا أن ندلل باللفظ عن هذه الصورة لقلنا : رسول الله وكافل اليتيم كالسبابة والوسطى . هل ترى لهذه العبارة من الرونق والبهاء والأريحية ما تجد فى قوله " أنا وهو كهاتين " .

إن الإشارة جعلت الجميع ينظر إلى هذين الإصبعين ويفكر فيما فيهما من معان كالالتصاق ، و دوام الصحبة ، ووحدة الدرجة ، وشمول النعيم لكليهما ، .... الخ .

فالإشارة هنا زادت من عمق التشبيه ، وفتحت له الباب ليجمع كل معانى الود والألفة والاقتران والوحدة وغير ذلك ، ولا شك أن فى كل ذلك حثا واستنهاضا للهمم حتى لا يبقى فى الأمة يتيم ، وهذا هو المراد .

---

(١) رواه مسلم / ٢٩٨٣ .

وقد تحمل الإشارة معنى التمثيل الذى يأتى فى أعقاب المعانى ، فتزيد الصورة أنسا ، وألفة ، بالإضافة إلى قيام الإشارة مقام الدليل على صحة التشبيه ، وهذا ما يفعله التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى ، ومنه :

ما رواه المسور بن شداد قال : قال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – **" والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه – وأشار يحيى بالسبابة – فى اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ "** (١).

إن الصورة التشبيهية كملت عند قوله – صلى ا لله عليه وسلم – ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم .

ثم جاءت الحركة – حركة وضع السبابة فى اليم ، لينظر الجميع ويتخيل أنه على شاطئ اليم الآن ، وها هو ذا يضع إصبعه فى اليم ثم ينظر فلا يجد شيئا .

إن هذه الإشارة أعطت التشبيه قوة ، لأنها قامت بدور الدليل والبرهان على صدق الصورة ، وأن من يفعل ذلك يرجع فارغ اليد من أى خير .

أرأيت كيف تدعم التشبيه بالإشارة المذكورة بعده ، وهذا مقام التمثيل الذى فتق أكمامه الإمام – رحمه ا لله – وقال فيه كلاما بديعا (٢).

---

(١) رواه مسلم /٢٨٥٨ .

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر ١٠١–١٠٢ .

إخراج المعنوى فى صورة المحسوس

تحدث البلاغيون عن إخراج المعنوى فى صورة المحسوس ، وذلك فى باب البيان عن طريق التشبيه أو الاستعارة ، أو التعبير بالمضارع وغير ذلك ، .... لكن الإشارة – كما أرى – أقوى أثرا من كل ذلك لأن الإشارة لا تكتفى بإخراج المعنوى فى صورة المحسوس .

وإنما تقوم بتصويره ، وتجسيده ، فيتحول الأمر إلى صور حية مشاهدة تراها العيون ، ومن ثم يتفاعل معها المتلقى . فيرسخ المعنى فى القلب رسوخا لا مزيد عليه .

وأول ما يلقانا من هذا ما رواه عبد الله بن عمر : قال : كأنى أنظر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – **يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : " رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون "** (١).

فجملة (يمسح الدم عن وجهه) فهم منها المراد ، لكن قيام النبى – صلى الله عليه وسلم – بتجسيد هذه الحركة زادت المعنى شخوصا ، لأنها عمدت إلى المتلقى ونبهت عينه إلى أن ينظر إلى المعنى وهو يتحرك أمامه كما أن فى هذه الإشارة بعضا من التخفيف ، والترويح عن الصحابة الذين ضاقوا من تعذيب الكفار لهم ، لأن رؤيتهم لما حدث للأنبياء وتشخيص ذلك أمامهم

---

(١) رواه البخارى /٣٤٧٧ ، ومسلم /٤٥٦٥ .

أنساهم أو خفف عنهم ما هم فيه ، يقول ابن حجر : " أن رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – ذكر ذلك لأصحابه تطييبا لقلوبهم " [1].

ومن هذا الباب ما رواه أبو هريرة – رضى ا لله عنه – قال : قال رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – : " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها . قال حماد : " فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك قال : ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى ا لله عليك ، وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ....

قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه – قال حماد – وذكر من نتنها وذكر لعنا ، ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، قال : فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل ....

قال أبو هريرة : فرد رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – ريطة كانت عليه على أنفه .... " [2].

فهذا تجسيد لهيئة من شم رائحة كريهة ، منتنة ، حتى اضطرته إلى وضع ردائه على أنفه ، مما يعنى أن رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – استشعر هذه الرائحة ، وأحس بنتنها ، فأراد أن يشرك الصحابة معه فى هذا الشعور فغطى أنفه بالملاءة ليستشعروا هم الآخرون الرائحة نفسها ، فيكون التنفير من هذا النموذج قد وصل إلى منتهاه .

---

(١) فتح البخارى ٢٠٦/٦ .

(٢) رواه مسلم /٧٠٨١ .

ومنه ما رواه أبو رافع عن أبى هريرة – رضى ا لله عنه قال : كان جريح يتعبد فى صومعة ، فجاءت أمه .... قال حميد : فوصف لنا أبو رافع صفة أبا هريرة لصفة رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – أمه حين دعته كيف جعلت كفها فوق حاجبها ، ثم رفعت رأسها إليه تدعوه ، فقالت : يا جريج ؛ أنا أمك كلمنى ، فصادفته يصلى ، فقال : اللهم أمى وصلاتى ، فاختار صلاته ، فرجعت ثم عادت فى الثانية فقالت : يا جريج ! أنا أمك فكلمنى ، قال : اللهم أمى وصلاتى ، فاختار صلاته ، فقالت : اللهم إن هذا جريج وهو ابنى ، وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى اللهم ! لا تمته حتى تريه وجوه المومسات

قال : ولو دعت عليه أن يفتن لفتن .... (١)

والإشارة هنا : أنها جعلت كفها فوق حاجبها ، ثم رفعت رأسها إليه .... وهذا التصوير يبين عدة معان :

الأول : أنها جاءته وقت سطوع الشمس ، واشتداد الحر .

الثانى : أنها امرأة عجوز ضعيفة .

الثالث : أنها جاءت من بعيد ، لأن هؤلاء كانوا يتخذون صوامعهم فى الصحارى بعيدا عن الحضر رغبة فى الخلوة .

رابعا : أن الدافع لمجيئها دافع قوى .

---

(١) رواه مسلم /٧٠٨١ .

وكل ذلك ولم تظفر منه بالإجابة ، إلا أنه لم يقدر هذه الأحوال ؛ لذلك استجاب ا لله لها ، ولا شك أن هذه الدلالات مستقاة من إشارتها التى تناقلها الرواة ، واحدا ، واحدا ....

وتلك لفتة لا ينبغى أن تمر على علماء البيان .

أعنى أن الرواة ، بداية من رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – نقلوا إلينا حركة أم جريج ، وهى تضع يدها على حاجبها وترفع رأسها ، وكأن هذه الحركة جزء من الدلالة ، ولا يمكن نقل جزء من البيان ، وترك جزء آخر .... وكأن المقصود من النقل ليس الإخبار عن أم دعت على ولدها لأنه لم يلب ، وإنما المقصود الإخبار عن أم هذا حالها وتلك ظروفها ولذلك دعت على ولدها .

ووصول المعنى إلى المتلقى لابد أن يكون بالجمع بين إشارتها ولفظها ولو أن راويا حكى كلامها ولم يحك إشارتها وفعلها فإن الأمانة تقتضى أن نقول له : لقد قصرت فى النقل ، وحجبت جزء من بيان النبى – صلى ا لله عليه وسلم – ولذلك انظر .

حكى النبى اللفظ والحركة .

ثم حكى أبو هريرة اللفظ والحركة .

ثم حكى أبو رافع اللفظ والحركة .

وهكذا ينبغى على كل من ينقل حديث النبى – صلى ا لله عليه وسلم – للناس أن يحكى اللفظ والحركة .

بل لا أبالغ إذا قلت إن شعراءنا لم يقولوا شعرهم وهم ساكنون سكون الحجر ، بل قالوا وهم يشيرون بأيديهم أو بغيرها فى مواضع كثيرة من شعرهم ، فأين هذه الإشارات ؟ لقد ضاعت ، كما ضاع أغلب الشعر ، لأن الرواة قصروا فى نقلها ، واكتفوا بنقل الألفاظ ، وكان الأولى بهم إذا رووا شعرا أن ينقلوا معه حركة الشاعر وإشاراته الدالة على معان كثيرة ، بل وينبهون الناس إلى أن الشعراء قاموا بهذه الحركات حتى نتناقلها كما تناقل رواة الحديث حركات رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – عند بيانه .

وأرى أن ذلك بلاغة غائبة عن البيان العربى ، بل والدرس البلاغى مما أضاع من البيان الكثير .

الطباق بالإشارة

الطباق عند علماء البلاغة هو : [الجمع بين المتضادين ، أى : معنيين متقابلين فى الجملة .... أى : يكون بينها تقابل ، وتناف ولو فى بعض الصور سواء كان التقابل حقيقيا ، أو اعتباريا] (١).

وعلى هذا يمكن اعتبار بعض مقامات الإشارات دالة على هذا الطباق ، ومثال ذلك ما ورد فى حجة الوداع عن سيدنا جابر بن عبد الله عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " .... وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس " اللهم اشهد اللهم اشهد .... ثلاثا " (٢).

فرفع اليد إلى السماء – ثم نكتها إلى الناس – صورة تقابلية لها دلالة ولا شك .

وهذه الإشارة المتقابلة جاءت فى أعقاب قولهم : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، .... فهل تفيد الإشارة أن السماء تشهد كذلك كما تشهدون ؟ أم أن المقصود الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بأن يسجل عليهم شهادتهم ؟ أم أن الإشارة تعنى أن ملائكة السماء وسكان الأرض الجميع يشهد فاللهم فاشهد ؟

---

(١) شروح التلخيص – مختصر السعد ٤/٢٨٦ .

(٢) شروح التلخيص – مختصر السعد ٤/٢٨٦ .

إن هذه المعانى كلها قد تكون مراده .... لكن الشاهد هو هذه الحركة باليد أو بالإصبع ، الأولى إشارة إلى السماء والأخرى إشارة إلى الناس ، وأن الغرض منها تأكيد الشهادة ، أو الإلحاح فى الدعاء إلى ا لله بالشهادة عليهم .

ومن هذا الباب أيضا ما روته السيدة عائشة – رضى ا لله عنها – أن رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – كان إذا اشتكى الإنسان الشىء منه ، أو كانت به قرحة أو جرح ، قال النبى – صلى ا لله عليه وسلم – بإصبعه هكذا ، ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها " باسم ا لله تربة أرضنا بريقه بعضنا يشفى به سقيمنا بإذن ربنا " (١).

وهذه الحركة عكس حركة الحديث السابق .

فهنا وضع إصبعه على الأرض ثم رفعه إلى السماء .

وهناك أشار أولا إلى السماء ثم أشار إلى الناس .

وكلا الحديثين فيه دعاء الأول دعاء بأن يشهد ا لله عليهم لاعترافهم بأنه بلغ الرسالة .... والآخر دعاء بأن يشفى ا لله المريض ، فهل يعنى هذا أن هناك علاقة بين الإشارات إلى السماء والأرض والدعاء ؟ ربما ....

يقول القرطبى : [وأما وضع الإصبع بالأرض فلعله لخاصية فى ذلك ، أو لحكمة إخفاء آثار القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة ....

---

(١) رواه البخارى /٥٧٤٥ ، ومسلم ٥٦١٥ ، وأبو داود / ٣٨٩٥ .

وقيل : .... كأنه تضرع بلسان الحال : إنك اخترعت الأصل الأول من التراب ، ثم أبدعته منه من ماء مهين ، فهين عليك أن تشفى من كانت هذه نشأته] [1].

وقد يفهم من هذه الإشارة المتقابلة – معنى التوسل – توسل العبد الذى خلق من تراب الأرض – إلى ا لله سبحانه وتعالى –

وهذا يعنى أن هذه الإشارات تحمل معنى الدعاء والطلب ، ولذلك جئ فى الحديث بلفظ (قال) وأسند إلى اليد فقيل " قال بيده " وكأن الدعاء هنا من الجوارح كما أنه من اللسان ، فالأيدى تدعو وتتوسل وتطلب كما أن اللسان يدعو ويتوسل ويطلب .

وأنا هنا لا أجزم بهذه الدلالات وإنما أحاول فهم الإشارة وعلاقتها باللفظ .

---

(١) فتح البارى ١٠/٢١٩ .

الخاتمة

وبعد ...

فلقد تناولت فى هذا البحث أثر الإشارة فى البلاغة العربية ، ودورها فى حمل المراد إلى الناس ، وذلك من خلال دراسة نظرية ثم تطبيق على بعض الأحاديث الصحيحة .

وفى الشق النظرى تعرضت لما أثبته علماؤنا من دور للإشارة وعلى رأسهم الجاحظ – رحمه الله – الذى جعلها رديفة للفظ ونائبة عنه .

ثم من جاء من بعده كقدامة وابن أبى الإصبع وابن حجة الحموى ، وقد ظهر من خلال كلامهم عنايتهم بالإشارة ودلالتها لكن قل عندهم عند الاستشهاد تطبيق التعريف على المثال ، فغالبا مانحوا بالإشارة إلى ما يفهم من اللفظ . وهذا كما ثبت بعيد عما يريده البحث ، فالبحث يكشف عن أثر الحركة – حركة اليد أو غيرها – فى المعنى .

ولقد أثبت القرآن الكريم ذلك ، كما ظهر .

أما الشق التطبيقى فلقد بينت فيه إمكانية إدراج الإشارة فى جميع أبواب البلاغة وعلومها ، علم المعانى وعلم البيان وعلم البديع وألقيت الضوء من خلال بعض الأحاديث على دلالة الإشارة على الحذف والتوكيد والتعريف ، وهذا من علم المعانى .

ثم دلالة الإشارة على التشبيه . وهذا من علم البيان .

ثم دلالة الإشارة على الطباق ، وهذا من البديع .

وما أردت الاستقصاء ، وإنما أردت فتح الباب لدراسة تراثنا العربى وهو زاخر – شعرا كان أو نثرا – من خلال الإشارات المصاحبة له ، لأن ذلك سيعيد إلينا دلالات ومعانى وقعت منا فى الطريق لقلة اهتمامنا بهذه الدلالة .

كما تبين من البحث – أن الإشارة لا تقوى على حمل المعنى وحدها غالبا والأصل أن تكون فى صحبة اللفظ ، ورديفة له ، أما إذا عجز اللسان فهى النائبة – بلا شك – عنه .

كما تبين أن للإشارة سياقات تكثر فيها مثل الأساليب الخبرية ، وذلك لأن الغاية الأولى منها إخبار عن طريق الحركة ، وهذا شاخص فى بيان الفصحاء والعامة على وجه سواء .

كما ظهر من خلال البحث إمكانية الدلالة بالإشارة على علوم البلاغة المتنوعة (المعانى والبيان والبديع) وأنها لا تقتصر على لون دون لون ....

وإنى بعد ذلك أوصى كل من سار على الدرب أن يلتفت إلى هذه الدلالة فى تراثنا العربى ، ويستخرج ما وراءها من أغراض ، فإن فى ذلك فتحا جديدا للبلاغة العربية .

كما أود أن يقوم بعضهم من دارسى البلاغة بتتبع هذا اللون من البيان وجمعه فى معجم ، يتعرف من خلاله على طرائق البيان بالإشارة .

فيكون عندنا معجم لألفاظ اللغة ، ومعجم للإشارات المصاحبة لها. كما لفت إلى ذلك ابن حزم حين قال .... النظر بجانب العين يعنى كذا وبقلبها يعنى كذا وقبض اليد ورفعها يعنى كذا .... الخ .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

ثبت بالمراجع

١- أحكام القرآن للجصاص ت / محمد الصادق قمحاوى - دار إحياء التراث .

٢- أصول الفقه للسرخسى ت / أبو الوفا الأفغانى - دار الغد العربى .

٣- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر - مكتبة المتنبى - القاهرة .

٤- البيان والتبيين لأبى عثمان الجاحظ - دار الكتب العلمية . بيروت

٥- تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبى الأصبع . ت/ حفنى شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى - دار الغد العربى .

٧- خزانة الأدب لابن حجة الحموى شرح عصام شعيثو - دار مكتبة الهلال - بيروت .

٨- الخصائص لابن جنى - الهيئة العامة للكتاب .

٩- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى . ت / محمود شاكر - الخانجى - القاهرة .

١٠- الدين الخالص لمحمود خطاب السبكى - المطبعة العربية الحديثة - القاهرة .

١١- سبل الاستنباط من الكتاب والسنة - محمود توفيق سعد - مطبعة الأمانة .

١٢- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - إدارة المعاهد الأزهرية .

١٣- شرح النووى على صحيح الإمام مسلم ط/ دار الغد العربى .

١٤- شروح التلخيص - دار السرور - بيروت - لبنان .

١٥- الصناعتين فى الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى - دار الكتب العلمية . بيروت .

١٦- طوق الحمامة فى الألفة والآلاف لابن حزم الأندلسى ت / فاروق سعد مطبعة دار مكتبة الحياة بيروت .

١٧- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيروانى طبعة / دار الجيل

١٨- عون المعبود شرح سنن أبى داود لشمس الدين العظيم أبادى - دار الكتب العلمية .

١٩- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن عجر العسقلانى - دار الريان للتراث .

٢٠- الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيرى - دار الكتب العلمية

٢١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشرى - دار التراث العربى .

٢٢- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف بمصر .

٢٣- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى - دار الغد العربى .

٢٤- نقد النثر (المنسوب) لقدامة بن جعفر - دار الكتب المصرية .

الفهرس

الموضوع	صفحة
المقدمة	٤٤٣
التمهيد	٤٤٨
مفهوم الإشارة فى اللغة العربية	٤٤٨
الإشارة فى بيان القرآن الكريم	٤٥٢
الفصل الأول :	
الإشارة فى تراث العلماء	
المبحث الأول :	
دلالة الإشارة عند الجاحظ	٤٥٩
توافق اللفظ والإشارة	٤٥٩
أعضاء الإشارة	٤٦١
الإشارة أبعد بلاغا من الصوت	٤٦٣
هل الإشارة عند الكلام عى	٤٦٥
المبحث الثانى : الإشارة بعد الجاحظ	

الموضوع	صفحة

الإشارة عند قدامة بن جعفر ٤٦٩

دلالة الإشارة عند ابن رشيق ٤٧١

الإشارة عند عبد القاهر ٤٧٦

الإشارة عند ابن أبى الإصبع ٤٧٧

الإشارة عند ابن حجة الحموى ٤٨٠

الإشارة عند الفقهاء ٤٨١

وقفة على ما سبق ٤٨٦

الفصل الثانى :

دلالة الإشارة فى بيان النبى صلى الله عليه وسلم

دراسة فى صحيح مسلم ٤٨٩

التوكيد بالإشارة ٤٩٣

التعريف بالإشارة ٤٩٧

دلالة الإشارة على المحذوف ٥٠٠

الاختصاص بالإشارة ٥٠٤

دلالة الإشارة على التشبيه ٥٠٩

الموضوع	صفحة
إخراج المعنوى فى صورة المحسوس	٥١٣
الطباق بالإشارة	٥١٨
الخاتمة	٥٢١
ثبت بالمراجع	٥٢٣
الفهرس	٥٢٥